سامحيني يا أم ألبير....

حواديت .. أسامة غريب

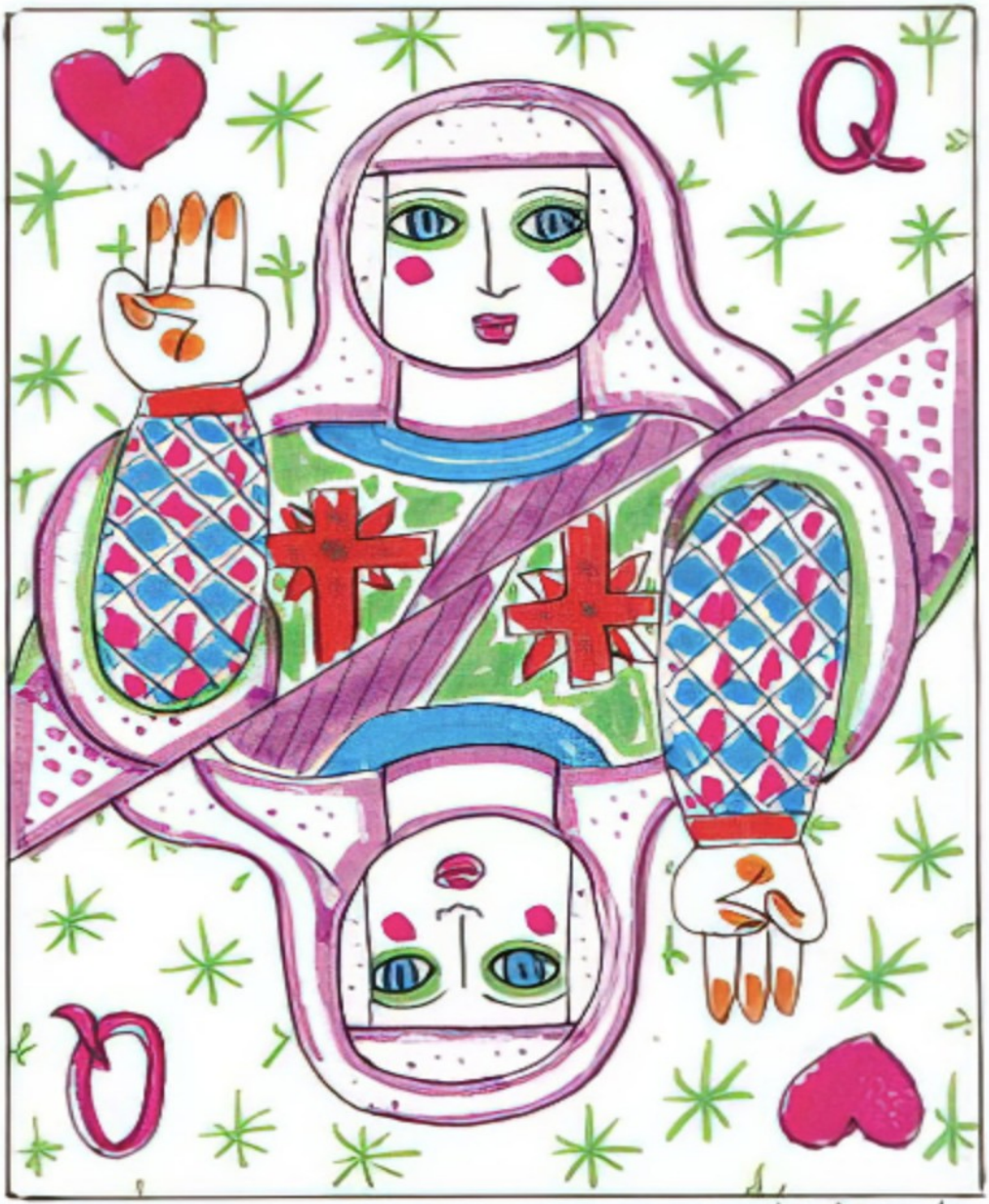

دار الشروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سامحيني يا أم ألبير

الكاتب: أسامة غريب

مقدمة..

عندما شرعت في كتابة هذه الحواديت كنت أنوي أن أسميها من ١٥-٢٠ كدلالة على الفترة التي أحكي عنها وهي زمن المدرسة الثانوية والجامعة التي كان عمري فيها يتراوح بين الخامسة عشرة والعشرين.

صحيح قد توجد حدوتة كان سني فيها أقل قليلًا من ١٥ أو أكثر قليلا من عشرين، لكن الحواديت كلها تقريبًا وقعت في فترة ثانوي وجامعة، وهي السن التي يكون فيها الصبي أو الشاب في عنفوان فورانه وتحديه للدنيا ورغبته في إثبات نفسه.. علاوة على أنها فترة تهاوي خرافات الطفولة التي تعقبها الحيرة والشك وعدم اليقين.

لكني خشيت أن تقف هذه التسمية (من ١٥-٢٠) حائلًا بين القارئ وبين العمل فلا يفهم ماذا أقصد به، أو ربما يتهمني بالبحث عن الأسماء الغريبة بغية لفت انتباه القارئ، كما قيل عن كتاب «مصر ليست أمي.. دي مرات أبويا» ومن بعده كتاب «أفتوكالايزو».. فآثرت أن أختار عنوان واحدة من حواديت المجموعة لأجعله عنوانًا للكتاب.

هذا عن فترة التلمذة (ثانوي وجامعة) والتي كانت في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين.. أما عن المكان الذي مثّل الساحة المكانية لوقوع معظم الأحداث فهو حي الظاهر بالقاهرة بشوارعه ودروبه وحواريه الذي قضيت فيه سنوات طفولتي وشبابي المبكر، وهو حي جمع أبناء الطبقة المتوسطة بشرائحها المختلفة بالأساس، إلى جانب الغلابة والمهمشين ممن عرفتهم وصادقتهم وعشت بينهم.

لا أمثّل دور البطل في أي من الحكايات لأنني قصدت الكتابة عن الغير وادخرت الحواديت التي كنت بطلًا لها لعمل آخر، وإن كنت طوال الوقت قريبًا من البطل ومتابعًا له وشاهدًا عليه.

لا أنكر أنني ترددت أثناء كتابة الحواديت فيما إذا كان يجدر أن أدخرها ولا أنشرها الآن باعتبارها تصلح مادة جيدة للسيرة الذاتية، تؤرخ لفترة مهمة من حياتي عندما أشرع في كتابتها لو أحياني الله بعد عدة سنوات، لكني حسمت أمري وفضلت أن أنشرها الآن لأنني لا أدري إذا كنت سأعيش لأكتب سيرة ذاتية، أو إن كنت سأجد في حياتي ما يستحق أن أسرده للقراء في كتاب كبير شامل.

لم أشأ أن أسميها «قصص قصيرة» رغم أنها كذلك لأنني وجدت اسم حواديت أحلى وأقرب إلى نفسي.. لكن مَن شاء من القراء أن يعتبرها قصصًا قصيرة فلن أجادله أو أغضب منه.. لا تهم التسميات.. المهم أن يكون ما تقرأه به أقل قدر من بواعث الملل ونسبة معقولة من الصدق والطرافة.

المقطم - القاهرة

سبتمبر ٢٠١٦

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

راوية.. الأحلى من القمر

كانت راوية أو السفيرة راوية كما كنا نسميها، واحدة من الدرر التي أنتجها شارعنا.. جمالها كان من النوع البلدي الحلو من حيث النضارة والوجه الصبوح والابتسامة التي تضيء المكان. كانت تبدو جميلة إذا خطرت في الملاية اللف التي كانت تستعيرها من أمها عندما تريد النزول السريع لشراء شريط كاسيت من الكشك على الناصية، أو لرؤية محمد الذي اعتاد أن ينتظرها في آخر الشارع حتى لا يلحظهما أحد.. كانا يظنان نفسيهما ناصحين لأننا جميعًا كنا نتابعهما وندري عن قصة حبهما الكثير. وكان جمالها يأخذ شكلًا آخر إذا ما ارتدت البلوزة والتنورة خاصة وأن ما أتحدث عنه كان في زمن الجيبات والفساتين فوق الركبة.. عندها كانت خطوتها تفتن من يتابعها وساقاها المرمريتان تعكسان الشمس على الوجوه، مما كان يدير الرءوس ويجعل الشباب والتلامذة يتخبطون كمن أصابه المس!

لم يكن شارعنا يخلو من الفتيات الجميلات اللواتي مثّلْن نماذج لفتيات الأحلام، لكن راوية كانت شيئًا آخر.. لم يكن في سلوكها ما يعيب، وخروجها مع محمد كان طبيعيًّا فهما في حكم المخطوبين، فضلًا عن أن غيرها من الفتيات كان يخرج بصحبة فتيان من أصحابنا دون أن تنخدش صورهن، لكن راوية ظلت مع ذلك دون غيرها مرتبطة في خيالنا بالغواية!

أحد أصحابنا (مصطفى) تجرأ مرة وأعرب عن هيامه بها أمامنا ولم يُخْفِ حبه لها، لكنه كان صريحًا مع نفسه عندما قال: إن ما يمنعني عنها ليس ارتباطها بمحمد، فهو الآن في الجيش وأمامه سنوات طويلة قبل أن تضع الحرب أوزارها ويصبح قادرًا على الشغل والزواج.. وأضاف: أما أنا فقد أنهيت دبلوم الصنايع وعندي الوظيفة والدخل الثابت.

ماذا يمنعك إذن يا أبا الفوارس من التقدم والفوز بها؟

قال: ما يمنعني هو أنني لن أستطيع العيش مع فكرة أن كل واحد منكم يفكر فيها ويصحبها معه قبل النوم إلى فراشه لتكون معه في الحلم.. لن أستطيع التعايش مع فكرة أنكم لن تعتبروا زوجتي أختًا لكم مهما تظاهرتم أمامي بالعكس. ليس جميلًا أبدًا أن يتزوج الرجل بفتاة تُفقد الرجال رشدهم بمجرد أن تظهر.. هذا جحيم لا يمكنني احتماله.

كان معه حق، فهو يعلم أن خيالاتنا جميعًا تشتعل بصور ورغبات وأوضاع فيها راوية.. ورغم أن تصوّره بإمكانية قبول راوية به بدلًا من محمد هي فكرة خائبة لم نقتنع بها، إلا أن بقية التصور كان معقولًا.

كانت راوية تتوسط عددًا لا بأس به من الشقيقات والأشقاء، وقد تميزت أخواتها بالوجه الحلو لكنها زادت عليهن بالدلال والطلة الدافئة. الشيء الغريب في هذه العائلة التي كانت تدير أمورها الأم بعد وفاة الأب هو أن كل أفرادها، الأشقاء الأربعة والشقيقات الثلاث ليس بينهم من دخل المدرسة أو عرف القراءة والكتابة!.. ولقد بدا هذا غريبًا لأننا لا نتحدث عن العشرينيات وإنما عن السبعينيات حيث التعليم مجاني والجميع يرتاد المدارس والجامعات.

كان سكان عمارتنا المكونة من ستة طوابق خليط من الأفندية الموظفين والأسطوات، ويمكن للمدقق أن يفرق بين من ينتسبون للطبقة الوسطى بتطلعاتها وعذاباتها والتكلف الذي يطبع سلوك أبنائها، ومن ينتسبون لأبناء البلد بفطريتهم وتلقائيتهم.. وقد كانت راوية وأسرتها من الفئة الثانية.

أما محمد الذي فاز بقلب السنيورة فقد تم تجنيده في ذروة حرب الاستنزاف بعد أن أنهى الدراسة بمعهد فني تجاري، واستقر على الجبهة إلا من إجازات قصيرة على فترات متباعدة. لهذا فقد كان من الطبيعي أن تحتاج راوية لمن يقرأ لها جواباته كما كانت تحتاج لمن يكتب لها الرد.. والحقيقة أن دور مرسال الغرام هذا كان مطمعًا للجميع.. لم يوجد من بين سكان العمارة من لم يحلم بأن يجلس مع راوية وهي بثوب البيت القصير أبو حمالات رفيعة عند الكتفين، ويملي عينيه من وجهها الحلو ويسمعها تتنهد وهي تملي الجواب بكلماتها البسيطة، المليئة بالتعبيرات الساذجة المحمّلة بالرقة والدلال. ولقد كان من حظي أنني كنت أحد اثنين من التلامذة فازا بشرف أداء هذه المهمة، وكان الآخر هو زميل الفصل مجدي الذي كان مثل غيره.. من محاسيب الست راوية!

كانت خطابات محمد تمتلئ بحديث عن المصاعب والمتاعب والشقاء والتدريبات والغارات الإسرائيلية، والضحايا من زملائه الذين نقلهم على كتفه وسط النار والجحيم، وكان يطلب منها أن تدعو له وأن تسأل أمها أن تدعو له أيضًا. أما خطابات راوية فكانت مزيجًا من كلام الحب والشوق واللوعة، زائد كلمات الأغاني التي كانت تهوى الاستماع إليها في الكاسيت والراديو.

قالت لي ذات مرة إنها تتمنى لو علمتها القراءة والكتابة حتى تستطيع شراء الكتب التي تضم كلمات أغاني عبد الحليم ووردة وفايزة وغيرهم. لم أتردد في الموافقة وطلبت منها أن تحدد موعدًا يوميًّا حتى نبدأ الدروس. لم يكن يعنيني سوى الجلوس إلى جوارها وتشمم عبقها وهي خارجة من الحمام وشعرها ملفوف.

لم تتحقق فكرة تعليمها القراءة والكتابة ربما بسبب أنها لم تكن جادة وإنما كانت تعبر عن حبها للأغاني.. ولا أنسى أنها في كل خطاب أكتبه لها كانت تملي عليّ كلمات أغنية فايزة أحمد «صعبان علينا»، فكانت تكتب له عن طريقي: صعبان علينا منّكم صعبان علينا.. والعِشْرة والناس كلها تعتب علينا.. مالناش حبايب بعدكم تسأل علينا.

كنت أقول لها: إيه يا راوية.. صعبان علينا إيه بس؟ الرجل لم يهجرك.. هو مجند على الجبهة، فكانت ترد بأن ابنة خالتها تكتب نفس هذه الأغنية لزوجها الذي يعمل في الأردن عندما يتأخر في الكتابة لها!

كنت أنزل عند طلبها وأكتب لها ما تشاء باعتبار أن الواجب يلزمني بأمانة النقل، لكني كنت أحتار عند التفكير في الأحاسيس الأنثوية لدى فتاة جميلة غير متعلمة تثق بي وتستأمنني على مشاعرها، هذا بالرغم من أن محمد قد طلب منها - كما أخبرتني - أن تعهد إلى إحدى فتيات العمارة من التلميذات بالكتابة لها.. واضح أن محمد كان يعلم مقدار حلاوة راوية، كما يعرف كَلَفَنا بها ورغبتنا في القرب منها، وهو كخطيب غيور كان يتحرى إبعادها عنا.

لم تفعل ما طلبه خطيبها لأنها خشيت من أن تكشف أسرارها لبنت مثلها، وذلك حتى لا تكون سيرة جواباتها لبانة في فم فتيات الشارع. كانت إذن بفطرتها تثق بالأولاد ولا تثق بالبنات.. ولا أدري إذا ما كانت على علم بأن هؤلاء الأولاد يشتهونها ويتطلعون لرؤية ما ينكشف منها، أو لعلها تعرف ولا تجد في ذلك غضاضة طالما أن الأمر لا يتجاوز الأحلام!

في ذلك الوقت وفي ذروة تعلقي بها كتبتُ من أجلها قصيدة أسميتها «راوية الأحلى من القمر».. عندما أسمعتُها القصيدة فرحَتْ بها بشدة، لكن كان واضحًا أنها لم تفهم كلماتها الفصحى، وقد أذهلتني عندما طلبت مني أن أكتب نفس القصيدة في خطاب منها لمحمد تعبيرًا عن حبها!.. ضحكت من سذاجتها ولم أعد أكتب فيها أشعارًا بعد ذلك.

بمرور الوقت لم أعد مستريحًا لفكرة كتابة جواباتها، رغم أنني كنت في البداية سعيدًا بولوج عالمها والاقتراب منها وتنسم عبيرها، لكنها بعد ذلك بدت أمام عيني طيبة للغاية، كما أن حبها لمحمد مسّني وأثر فيّ، فضلًا عن أن أحلامها البسيطة في الحياة جلبت تعاطفًا بلا حدود من ناحيتي إليها. كل هذا أطفأ رغبتي فيها، وبصراحة كانت ثقتها بي تضايقني من جهتين: أولًا لخشيتي من ألا أستطيع أن أكون أهلًا لهذه الثقة على الدوام، وثانيًا لأن هذه الثقة قد تعني في أحد جوانبها أنه لا خطورة مني.. وهذا لا يسعد الرجال بطبيعة الحال!

ورغم ذلك فإنني كنت أسارع بالذهاب إليها كلما نادت عليّ وذلك حتى لا تضطر للاستعانة بمجدي، لأن الوغد لم يكن يتورع عن أن يحكي للمجموعة بفخر وخيلاء عن زياراته لراوية.. كان يقص عليهم على أي هيئة رآها، وماذا كانت ترتدي وطول قميص النوم، غير حديثه عن الانحناءات والتثنّي وأشياء أخرى، كنت أرى أنها تبتعد عن الأمانة التي وضعتها البنت به.

كان غضبي مردّه أنني أدركت أنها ليست فتاة لعوب.. هي جميلة ومغرية وتدير الرءوس دون أن تتعمد، لكنها سليمة النية ولم ينجح أي أحد في استمالتها طيلة فترة غياب محمد.. هذا غير أن أشقاءها الذين كانوا يعملون في ورشة أخشاب قريبة كانوا يلعبون معنا الكرة يوم الأحد، أي يُعتبرون في حكم الأصدقاء. صحيح أن صداقتنا بهم لم تكن لتمنعنا من التهامها لو أنها أظهرت أي إشارة رضا أو عدم ممانعة، لكن كون أن هذا لم يحدث فمن الأفضل صون الصداقة!

بدأت خطابات محمد لها تحمل الغضب.. احتد عليها لأنها ذهبت إلى ياسمين الخياطة، وهو قد حذرها من الذهاب إليها.. أقسمت لي أنها لم تذهب، فمن أين أتى بهذه الأخبار الكاذبة؟.. كتب لها أيضًا أنه لا يفهم لماذا تغيرت مشاعرها نحوه ولماذا كتبت أنها تريد الموت. أصيبت راوية بصدمة وسألتني: أي موت؟.. أنا لم أقل هذا في جواباتي.. هل تكتب ما أقول لك أم تضيف أشياء من عندك؟.. أذهلني سؤالها.

كنت أقرأ وأنا أيضًا غير فاهم.. في النهاية طلبتُ منها أن تبحث عن أحد غيري لأني لم أعد أحب هذه المهمة، ونصحتها أيضًا بأن تنتقي أحدًا غير مجدي ومن الأفضل أن تكون فتاة.

لم تعد تطلبني بعد ذلك لكتابة خطاباتها وأصبح بيني وبينها حاجز.. لقد طاف بخاطرها أنني قد أكون السبب، وكان هذا كافيًا لأن أغضب وأشعر بالحزن. أنا لا أدري ماذا كتب لها الملعون مجدي في غيابي.

لاحظت بعد ذلك أنها هزلت وغاضت ابتسامتها وفقدت المرح الذي كان يميزها.. حتى صوت الكاسيت الذي كان يأتيني من شباكها توقف.

طال غياب محمد وانقطعت حكاويهما عني بعدما استعانت بطفلة من العائلة لتكتب وتقرأ لها، وكانت ابتسامتها الغائبة وملامح الحزن على وجهها تشي بأن الأمور مع محمد في تأزم! كنت أشعر بضيق كلما رأيتها حتى أنني تمنيت أن يعود خطيبها ويتزوجها ويأخذها ويرحلا من الحي كله.

ثم أتى من على الجبهة الخبر الأليم.. استشهد محمد أثناء طلعة من طلعات جنودنا للشط الآخر من القنال. اكتسى الشارع كله بالسواد ورأيت أمه غير قادرة على النطق.. أما راوية فقد نقلها إخوتها للمستشفى بعد أن انهارت لدى سماعها الخبر.

خرجت راوية من المستشفى لكنها كانت شخصًا آخر.. حبست نفسها في البيت، وبعد عدة أسابيع غافلت أهلها وسكبت على نفسها الكيروسين وأشعلت النار.

كنت قد رأيتها في اليوم السابق على انتحارها تقف بجوار شباك المطبخ.. كانت شاردة، ذابلة، منطفئة.. نظرَتْ نحوي صامتة وكان شباكي قريبًا منها. يا إلهي.. لقد هدّها الحزن. نظرتُ إليها وأنا لا أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول. سالت منها دمعتان تحدرتا على خديها. تقلص وجهي واحتقن ثم انفجرتُ في البكاء وسارعت بالهرب.. ولم أرها بعد ذلك.

كانت مأساة مروعة عاشها شارعنا وقد تأثرنا بها جميعًا. لقد كان كثيرًا علينا أن يموت محمد ثم تلحق به راوية وهما الثنائي الذي طالما ناله حسد الصبيان والبنات، وتصور الجميع أن أيامًا ولياليَ وردية تنتظرهما.

بمرور الوقت خفّت الفاجعة وتناقص أثرها شيئًا فشيئًا، ومثل كل حزن بدأ كبيرًا ثم أخذ يصغر حتى تلاشى أو كاد.. ومع ذلك كانت تصيبني غصة في كل مرة كنت أرى فيها مجدي جاري وزميلي بالمدرسة وشريكي في كتابة الخطابات، وكان هو يفهم ذلك، فكان يُغضي ويضع وجهه في الأرض لدى رؤيتي.

بعد سنوات وكنا قد كبرنا وتخرجنا وتركنا الحي، قابلت مجدي وقد أصبح طبيبًا.. قابلته في مناسبة اجتماعية عند أحد الأصدقاء فأمسكني من يدي وقال لي: هناك ما أود أن أحدثك فيه من سنين.

شعرت أنه سيتحدث عن الموضوع القديم فقلت: لا أظن أن ما تقوله سيسعدني.. من الأفضل ألا تقول شيئًا. قال: أنا أصر أن تسمعني.. أرجوك.. أنا أعرف أنك تنظر لي نظرة سيئة وأنا أستحقها لكني لست السبب في موت محمد.

قلت مندهشًا: ومن قال إنك السبب؟ رد: لم يقل أحد لكني أخشى أن تعتقد ذلك. قلت: لقد كانت الجبهة ترسل لنا شهداء من أبناء مصر كل يوم. قال: أعترف لك بأنني كنت أحبها مثل الجميع وأعترف بأنني كنت أحيانًا أفبرك كلامًا لم تقله لي بهدف مضايقة محمد.. لقد كنت أستكثره عليها، وبعد موته شعرت أنه مات تعيسًا بسببي.. قال هذا ثم لمعت عيناه بالدموع وهو يردد: أنا حيوان.. أعرف أنني حيوان.

لمست كتفه في رفق: هون على نفسك يا رجل.. لقد مضى وقت طويل وليس هناك من يعرف أي شيء عن هذه الحكاية، وأنا عن نفسي لم أتحدث مع أحد في هذا الشأن مطلقًا.

قال: أعرف.. أعرف وقد تابعتك طيلة سنوات خشية أن تفضحني لكنك لم تفعل.

قلت: ما الذي يضايقك إذن.. لقد فعلت ما أردت ونجوتَ بفعلتك؟

قال في صوت كسير: هذا صحيح، لكن الشعور بالعار الذي يلازمني سببه أنني نجوت بفعلتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق الحاج علي

كان الحاج علي النقراشي هو الكفيل الذي يعيش في كنفه فريقنا للكرة الشراب، الذي كونّاه من أمهر وأحْرَف الأولاد الذين عرفتهم شوارع الظاهر وباب الشعرية. ومثلما نرى الآن الرعاة الرسميين الذين يتكفلون بالإنفاق على فرق كرة القدم في أوروبا وغيرها، وكما كان يحدث في مصر على زمن الخطيب وفاروق جعفر، عندما كانت الأندية تقدم للاعبين الفتات، لكن كان يعوض ذلك المشجعون المليونيرات الذين كان الواحد منهم يرعى الموهوبين من أبناء النادي وينفق عليهم من وَسَع.. كذلك كانت رعاية الحاج علي لنا.. كان يشتري لنا الفانلات التي نرتديها في المباريات من فرع شركة بيع المصنوعات الكائن بشارع الجد، حتى نستطيع أن نشارك في دوري الأحياء الذي كان يقام في أرض الجميل، وكانت مبارياته تعد بمثابة حدث سعيد لسكان المنطقة المحبين للكرة.

كانت الحيرة في البداية لاختيار اسم للفريق، وكانت الأسماء المرشحة قد أُخذت بالفعل مثل فريق الأسد المرعب وفريق النمر الذهبي. الفرق التي كانت تشترك في الدوري معنا كانت تأتي من كل أحياء القاهرة، فهناك فريق طوسون من شبرا وفريق ميمي عبد القوي من روض الفرج وفريق علي أبو النجا من القبيسي وفريق الدرب الأحمر وفريق باب الشعرية، الذي كان أفراده جميعًا من الجزمجية، وللغرابة كانوا كلهم من الأسطوات فوق السن، ولم يسمحوا لأي صبي من الشباب أن ينضم لفريقهم!

كانت مشكلة فريقنا أن لاعبيه كلهم من طلبة الثانوي، وذلك على خلاف معظم الفرق الأخرى التي كانت تضم عمالًا وأسطوات وموظفي حكومة، يستطيعون الاعتماد على أنفسهم لشراء الكرات الإسفنج والفانلات واستئجار الشَبَك والعُرَض الخ.. لذلك كانت مشكلاتنا مزمنة في الحصول على ما يلزم للعب وأقله الأحذية.. وآه من موضوع الأحذية الذي كان مثار خلافات لا تنتهي مع الأهل.. كنا نلعب بالأحذية الجلد العادية التي نذهب بها للمدرسة، وهذه كانت لا تحتمل مباراة واحدة حتى يضرب بها الفتق من كل ناحية، فيصرخ الأب وتهرع الأم إلى الإسكافي لمداواة الحذاء الناتئ الذي دمرته الكرة.

لكل ذلك كان ظهور الحاج علي صاحب ورش ومعارض الموبيليا ليتولى رعاية فريقنا حدثًا عظيمًا للمجموعة. لم تعجبنا الفانلات التي اشتراها لنا الحاج لكننا استجبنا لنداء العقل وقبلناها. عندما أتينا للحديث عن الأحذية أعلن الحاج عن وجود مكان عظيم يمكن أن نشتري منه كل ما يلزمنا من الأحذية الرياضية، وبالفعل أرسل معنا أحد النجارين من ورشته ليصحبنا إلى منطقة الإسعاف بشارع ٢٦ يوليو، وبالتحديد خلف مستشفى الجلاء للولادة، حيث وجدنا البائعين يفترشون الأرض ويعرضون أزواجًا من الأحذية الكاوتش القديمة التي تم طلاؤها بمادة الإسبيداج البيضاء، وكأنها هكذا ستعود جديدة وتسعد الزبون!

أثار هذا الأمر امتعاضنا بشدة فرفضنا جميعًا أن نرتدي أحذية قديمة، وطأتها وتعرقت داخلها أقدام أخرى قد تكون محملة بالأمراض الجلدية. عاد معنا الأسطى النجار وهو حانق علينا، ومن جهتنا قاطعنا الحاج ولم نذهب إليه؛ لأننا اعتبرناها إهانة من الرجل الذي ظننّا أن خيراته ستنهمر علينا أسوة بما يحدث مع حسن شحاتة وعلي خليل وطاهر الشيخ.

من الواضح بعدها أن الحاج وصلته الرسالة، وأدرك أنه يتعامل مع شبان متعلمين لا يجوز الاستخفاف بهم أو إساءة تقدير كبريائهم حتى لو كانوا مفلسين، فبدأ يعيد ترميم علاقته بنا وقرر صرف مكافأة قدرها خمسون قرشًا لكل فرد في الفريق، وذهب معنا بنفسه إلى محل باتا في شارع الظاهر حيث اختار كل منا لنفسه حذاء لا يقل ثمنه عن ثلاثين قرشًا!

كانت المباريات على أرض الجميل شديدة الروعة وبعضها لم يكن يقل إثارة عن مباريات كأس العالم، وأستطيع أن أقرر أنه كان يوجد بيننا من يتفوقون على الخطيب وأبو تريكة، غير أن أحدًا من الكشافين الذين كانوا يلتقطون المواهب لم يرهم.. وبالنسبة لفكرة أن يتقدم الواحد منا بالذهاب إلى الأهلي أو الزمالك ليعرض نفسه، فقد كان هذا هو المستحيل بعينه، إذ إن حراس أبواب النادي كانوا يطردوننا بغلظة ولا يسمحون لنا بمجرد الوقوف بجوار البوابة من الخارج!

وحتى في المرة اليتيمة التي تعطف علينا فيها نادي الترسانة وسمح لنا بالدخول ليرانا أحد المدربين المساعدين فإنها كانت تجربة سيئة، ذلك أننا تعودنا طول عمرنا على لعب الكرة الشراب ثم كرة الإسفنج التي كنا نصنعها بأنفسنا؛ بأن نلف الإسفنج بعد وضعه في كيس نايلون بالخيط ثم نغمسه في الكلّة ونترك الكرة تجف، وفي الحقيقة هذه الصنعة كان لها أسطوات ولم تكن عشوائية؛ لأن الهواة عندما كانوا يتصدون لعملية لف الكرة فإنها كانت تخرج منهم على شكل شمامة!.

بعد دخولنا نادي الترسانة لم نصدق أنفسنا، إذ رأينا رأي العين الكابتن حسن الشاذلي ومعه مصطفى رياض والحارس البهلوان حسن علي. عندما أدخلونا في تقسيمة في الملعب اكتشفنا جميعًا أن الكرة الكَفَر، كما كنا نسميها، غريبة تمامًا علينا وأننا لا نجيد التحكم بها لعدم التعود. فشلت التجربة فقررنا الاكتفاء بنصيبنا واللعب في الشارع على الأسفلت. ومن المفارقات المدهشة في شأن اللعب في الشارع أن بعض اللاعبين في الفرق المنافسة كانوا يشتركون في المباريات حفاة الأقدام، ولم نسمع أن أحدًا منهم أصيب أو خرج للعلاج!

ظلت مبارياتنا تلهب الأكف بالتصفيق ونتائجنا تجلب لنا رضا السكان الذين نمثلهم، وأخذت مكافآت الحاج علي تزداد خصوصًا بعد أن قام بصنع لافتات زرعها في المنطقة قدم فيها التحية لفريق علي النقراشي!.. لقد قام الحاج علي بتسمية فريقنا باسمه شخصيًّا بعدما كنا نطلق عليه اسم منتخب الظاهر!.. لم يسألنا ولم يأخذ رأينا وإنما وضع اسمه على الفريق وصارت الانتصارات منسوبة لشخصه.. والغريب أننا عجزنا عن الاعتراض أو إظهار الاستياء خاصة بعد أن أصبحت مكافأة الفوز في المباراة الواحدة جنيهين!.. وقتها أدركت أن لا شيء في هذا الكون بالمجان وأحسست دون قراءة أو محاضرات بقسوة الرأسمالية.

زاد الترابط بين أعضاء فريقنا وبين الحاج علي الذي كان يعزمنا كل يوم أحد على الغداء في بيته بالعباسية، وبتنا كأننا أسرة واحدة هو راعيها، حتى أن بعض آبائنا بدءوا يتضايقون من الرجل الذي يلتف حوله الأبناء أكثر من التفافهم حول الأهل.

ذات يوم بعد الغداء الدسم تحدث معنا الحاج عن بعض المشاكل التي يواجهها في العمل، وبالذات مشاكله مع السيد القاضي تاجر الأخشاب الكبير الذي توجد مخازنه بجوارنا.. أقسم لنا الحاج أنه يتعامل مع الرجل بما يرضي الله، غير أن الأخير نصب عليه في شحنة أخشاب مسوّسة باعها له ورفض أن يرد ثمنها ولم يتمكن النجارون في ورش الحاج من الانتفاع بها.

بدا الحاج متأثرًا وهو يروي لنا صدمته في السيد القاضي الذي خدعه وضحك عليه في مبلغ كبير، ولم يخجل من أن يعترف لنا بإحساسه بالعجز عن فعل أي شيء لغريمه. سأله حاتم صديقنا: هل

ستسكت له؟ قال الحاج علي: لا أدري ماذا أفعل.. شوروا عليّ يا ولاد وقولوا لي كيف أثأر منه؟..
اندفع صفوت مستجيبًا للشهامة الفطرية المغروسة فيه قائلًا: لا بد من الانتقام. رد الحاج بصوت فيه خضوع: وكيف أنتقم يا بني؟ قال حمادة بدون أي تردد: احرق له مخزن الخشب.. إنه يحوي بضاعة بمليون جنيه على الأقل!
أفقت على الاقتراح الأخير وأنا غير مصدق، كيف بدأت جلسة الغداء وإلى أين ستأخذنا بعد انتهائها؟!
قال الحاج علي بنفس الصوت الضعيف: أنا لا أستطيع أن أفعل هذا بنفسي، وابني محمود كما تعلمون يدرس في إنجلترا، وأنا هنا وحدي وليس لي إلا الله.
وجدت نفسي أقول له: وأين ذهب عمالك وصبيانك وأسطوات ورشتك؟.. قبل أن يرد أكملت له مصححًا: أنا لا أشجعك على حرق مخزن السيد القاضي، لكني فقط أقول إنك لست وحيدًا ومعك جيش من الشغّيلة.
رد الرجل في انكسار: كل هؤلاء لا يمكنني الوثوق بهم.. إنني لست زعيم عصابة من التي ترونها في الأفلام، حيث يقوم الصبيان بافتداء المعلم وحمل القضية عنه.. ومضى: إنني لو اعتمدت عليهم لابتزوني وعرضوني للخطر.
انبرى حمادة للمرة الثانية قائلًا: ولا يهمك يا حاج.. نحن أولادك وسنفعل لك ما تريد.
لمعت عينا الحاج في سرور: صحيح يا حمادة؟
قال حمادة وأيده صفوت وناجي: طبعًا يا حاج.. نحن تحت أمرك.
بعد الخروج من بيت الحاج وركوبنا الترام عائدين ران علينا صمت انتهى بعد وصولنا عند سينما ريالتو. قلت لهم: هل سترتكبون جناية من أجل الحاج علي النقراشي؟ هل أصبحنا من رجال العصابات؟
المهم أن أعضاء فريقنا الثمانية انقسموا إلى أربعة رفضوا الاشتراك في الجريمة وأربعة تحمسوا بشدة، واعتبروا الأمر واجبًا يتصدى له الرجال ولا ينكص عنه سوى العيال الخيخة!
ولما كنت من العيال الخيخة فإنني قاطعت مباريات كرة القدم، ولم أشأ حتى أن أكمل الدوري، بعد أن أدركت أن الحاج علي أوشك أن يشتري أرواحنا، ويكاد يعتبرنا ضمن متاعه مقابل فانلتين وجزمة كاوتش من عند باتا وبعض الفكة!
طبعًا لن أفاجئكم لو قلت إن الجريمة تمت واحترق مخزن الأخشاب الضخم، وظلت عربات المطافئ تعمل ليومين على التوالي، ولقد طالت التحقيقات كل عمال الحاج علي وكذلك أعضاء فريقه الكروي.. وتوالت الاعترافات فكان السجن نصيب أصدقائي الذين تهوروا وباعوا المستقبل في حب عم الحاج!.. الغريب أن علي النقراشي ظل بمنأى عن المحاسبة وشال القضية بدلًا منه أحد صبيانه، وتم ترتيب الأمر على أن الصبي هو الذي حرض أصدقائي الطلبة على الجريمة، ورغم نفي أصدقائي لهذا الأمر في التحقيقات فقد نجا الحاج علي ولم يدخل السجن يومًا واحدًا!
بعدها اعتزلت كرة القدم نهائيًّا، لكن سؤالًا ظل يطن في رأسي: ترى هل احتاج الخطيب وزيزو وطه بصري والجوهري إلى حرق مخزن أحد الحيتان لصالح الحوت الراعي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نبيلة.. والعريس

كان بعض أفراد الشلة قد أنهى الدراسة الجامعية وانخرط في الحياة العملية، بينما أعضاء آخرون ما زالوا في آخر سنوات الدراسة.. على أي الأحوال لم يؤثر ذلك على التقليد الراسخ بالاجتماع على ناصية الشارع كل ليلة لتدارس أحوال العباد، وبالذات أحوال بنات حواء من سكان الحي اللواتي كبرن مثلنا وبدأ العرسان يطرقون أبوابهن.

كانت الجلسة تنتقل أحيانًا إلى قهوة قشتمر القريبة، حيث يمكن لعب بعض الطاولة مع استمرار الموضوع الأساسي على جدول الأعمال وهو البنات.

في تلك المرحلة كان الحديث عن كرة القدم قد بهت، ولم يعد تدبير مباريات نلعبها مع شباب من أحياء أخرى له نفس الأهمية التي كان عليها في السابق، وقل أن نجد بيننا من ينشغل بالاتفاق على ماتش والعمل على تأجير ملعب تجري عليه المباراة. أيضًا خبا أوار أدوار الشطرنج التي كانت متوهجة، وكنا نصحو وننام عليها منذ سنوات. بصراحة.. بات واضحًا أن اهتماماتنا قد تحورت على غير اتفاق، وأصبحت في معظمها عبارة عن انشغال بالفتيات.

كان دخول الجامعة قد كسر حاجز الخجل بيننا وبين الجنس الآخر، وصار بوسع الواحد أن يتقدم لمحادثة فتاة دون أن يرتبك أو يشعر بأنه مقدم على حدث جلل.. لذلك لم يكن مستغربًا أن هناك من بيننا من ارتبط أثناء الدراسة وخرج من الجامعة وفي يده زوجة المستقبل. لكن مع ذلك فإن العدد الأكبر منا كان لا يزال غير مرتبط يتحين الفرصة ليتعرف على الفتاة المناسبة.

لم تكن مشكلة جيلنا هي مشكلة الأجيال السابقة منذ عشرات السنين عندما كان اللقاء صعبًا والاختيار يجري بأيدي الأهل، ولا كانت مشكلته أن دوائرنا تخلو من الفتيات، ولا كانت مثلما صوّر يوسف إدريس في إحدى قصصه القصيرة أن المشكلة كانت تكمن في عجز من يحب عن مصارحة المحبوبة بحقيقة مشاعره.. بالعكس كان بوسع الواحد أن يفاتح البنت إذا أعجبته بأمر رغبته في التقدم لخطبتها حتى تكون قد أصبحت من نصيبه في نفس الأسبوع.

لكن مشكلتنا في تلك الفترة كانت أن الطموح العاطفي أصبح زائدًا عن الطبيعي، ولم يعد الشاب يقنع بالحصول على فتاة واحدة والزواج بها ثم ينتهي الأمر.. كان هناك هوس بالتواجد في كل دوائر اللعبة، أي لا مانع من وجود فتاة «يمشي معاها» طبقًا للتسمية الشائعة وقتها، وفتاة أخرى يصادقها بشكل أقرب إلى الأخوي، وفتاة ثالثة تكون مرشحة لتتحول إلى حبيبة.. وقبل هؤلاء جميعًا لا بأس بامرأة يعيش معها فنون الجنس، سواء كانت مطلقة أو أرملة أو حتى متزوجة!

كانت الشهية مفتوحة على كل أنواع العلاقات، والقلب الغض لم يكن بريئًا تمامًا والصفحة البيضاء كانت تستعد بفرحة شديدة لتتلوث!

في إحدى الأمسيات أقبل علينا صديقنا حسن وهو مهندس حديث التخرج.. كان وجهه يتهلل بالفرحة. وقف معنا قليلًا على الناصية والتهم بعينيه امرأة عابرة وروى لنا آخر نكتة، ثم انتحى بي جانبًا ودفعني للسير معه حتى وصلنا للقهوة وحدنا. أحسست أن لديه ما يود التصريح به فتركته يفرغ الأخبار التافهة أولًا قبل أن ينظر نحوي وعيناه تلمعان: قابلتها قابلتها. سألته: من هي التي قابلتها؟

قال: نبيلة.. قابلت نبيلة وهي سائرة في شارع ٢٦ يوليو. قلت له: نبيلة مصطفى الساكنة بعمارة أبو سعدة والتي تدرس في آخر سنة بكلية الحقوق؟

قال: نعم هي.. أنا أعرف أنها كانت معك بالمدرسة وأنكما صديقان لهذا آثرت أن أخبرك وحدك.
قلت في دهشة: وما الغريب في أن تقابلها.. نحن جميعًا نلقاها بالشارع ونحييها ونتبادل معها كلمات السؤال عن الأهل وعن الصحة؟
أجاب: لأن اللقاء لم يقتصر على الكلمات التقليدية، لكن للمرة الأولى ينفتح الحديث بيننا؛ فتحكي لي عن دنياها وعن أحلامها وعن بعض صديقاتها، وكذلك عن فيلم شاهدته بالسينما مؤخرًا.. قال هذا ثم أردف: كدت أن أيأس من التماس طريقة أتحدث بها إليها، ولقد ذهبت إليها في كليتها أكثر من مرة وتظاهرتُ بأن الأمر مجرد صدفة، ثم وجدت نفسي أقف مع زملائها وزميلاتها نتحدث في عموميات دون أن أظفر بها وحدها.. أما اليوم فقد مشينا معًا مسافة طويلة، وكان باستطاعتها لو أن صحبتي لا تروقها أن تقدم أي عذر ثم تتركني وتنصرف، لكنها لم تفعل، وهذا ما شجعني على أن أطلب منها أن نجلس ونشرب شايا في كافيتريا فندق فيكتوريا بشارع الجمهورية.
ظل حسن يتحدث بحماس عن هذا اللقاء طيلة جلستنا وأحسست أنه يشعر بسعادة، لهذا فقد استغربت دهشته حين سألته: هل تحبها يا حسن؟.. نظر إليّ كمن لا يعرف كيف يجيب قبل أن يقول: من الممكن طبعًا أن أحبها إن سارت الأمور كما أتمنى.
قلت: وماذا عن نعمة؟
قال: مالها نعمة؟.. ستظل كما هي.. نخرج معًا وندخل السينما معًا وأبوسها وأتحسس ساقيها في الظلام.. لكني لم أعِدْها بشيء، كما أن أفق علاقتي بها محكوم.. أنا أخرج معها فقط لأنه من العار أن تكون لكم جميعًا فتيات وأنا أتفرج عليكم، أما نبيلة فشيء آخر.
ورغم أنني لم أفهم تمامًا هذه الإجابة إلا أن فرحته أسعدتني.. كل ما كنت أخشاه هو ألا يستطيع تحديد الموقع الذي يضع نبيلة فيه طبقًا للتنويعة السالف ذكرها، وكان من الواضح أنه لم يستقر بعد على أين يضعها.
كانت نبيلة من الفتيات اللاتي لم يتأثر جمالهن بالانتقال من مرحلة لمرحلة مثلما حدث للكثيرات. عرفنا فتيات كنّ حلوات في ابتدائي، ثم عندما آتاهن خراط البنات في إعدادي وثانوي فإنه خرط أكثر من اللازم أو تغافل عن مناطق كانت تستحق عناية أكثر!.. لكن نبيلة ظلت حلوة ورقيقة على الدوام، وطبقًا للمعلومات المتداولة وسط الشلة فإنها لم تتورط في المشي مع أحد طوال إعدادي وثانوي، لكن المعلومات عن سنواتها بالجامعة كانت شحيحة.
بعد أسبوع التقيته مرة أخرى فلم أنتظر أن يحكي وإنما بادرته بالسؤال عن الأخبار، وهو من جانبه لم يتردد في الحكي. قال: قابلتها أكثر من مرة وأصبحت أشعر بسعادة وهي معي.. حديثها حلو وثقافتها واضحة وقد منحتني ثلاثة لقاءات هذا الأسبوع غير المكالمات التليفونية، وهذا في حد ذاته مؤشر على أن الأمور بيننا تمضي في طريقها الصحيح.
قلت له: عظيم يا صاحبي.. يبدو أننا سنسمع أخبارًا حلوة قريبًا.
وبالفعل لم تكذّب الأقدار نبوءتي، فقد سمعنا أخبارًا حلوة بعد يومين من لقائي هذا بحسن.
كانت الأخبار تقول إن نبيلة قد تمت خطبتها لصديقنا كمال سعفان وهو واحد من أعضاء الشلة كان قد تخرج منذ أربع سنوات وعمل مع أخيه بشركة السياحة المملوكة لهذا الأخ. كان كمال كثير الأسفار مع الأفواج التي يصطحبها إلى الأقصر وأسوان والغردقة، لكن عودته للقاهرة كانت تضفي على الجلسة حيوية بما يحمله معه من حكايات عن الأجنبيات اللاتي يتعرف عليهن في الرحلات. كنا

جميعًا نتصور أن المطاف سينتهي به وقد تزوج ألمانية أو إيطالية من بطلات رواياته، لكن لم يخطر ببالنا أنه يضع نبيلة تحت عينيه حيث لم يحدثنا بشأنها قط!
ظللت أبحث عن حسن لأفهم منه الموضوع، لكن يبدو أن الصدمة جعلته يحتجب ويتوارى رافضًا لقاء من يسأل عنه حتى أنا!
بعد مرور عدة أيام استطعت أن أقابله وكان متكدرًا للغاية ولم يبد أن لديه إجابات شافية.
قال بصوت متقطع تملؤه الدهشة: لقد كانت الأمور بيننا تمضي بشكل طيب وتتقدم من حسن إلى أحسن.. صحيح أنني لم أحدثها عن الخطوبة والزواج ولكني قصدت أن تأخذ المسائل راحتها ومجراها، وحلمت بأن أعيش معها قصة حب.. قصة حب مُشبعة بها الشوق واللهفة والانتظار وفرحة اللقاء، لكنها لم تمهلني.. لقد اعتدنا أن الفتاة عندما يتقدم لها خاطب فإنها تخبر من هي معه حتى يتصرف قبل فوات الأوان.
قاطعته قائلًا: الآن تقول هذا؟ هل نسيت أننا كنا نتخذ موقفًا ساخرًا من البنت التي تريد الزواج ولا نستحي أن نقول إنها «غير صالحة لأنها عايزة تتجوز».. هل نسيت أنك أنت بالذات كنت تتندر على الفتاة التي تفعل ذلك وتتهمها بأنها تختلق مسألة العريس حتى تستحث الزبون وتجره من رقبته للقاء والدها؟
رد والدهشة لا تزال ترتسم على ملامحه: حتى لو كان هذا رأيي في السابق، فقد كان بإمكاني التأكد من موضوع كمال سعفان وأنّ الأمر جد لا هزل فيه، لكن صاحبتنا هذه قبلت الخطوبة ببساطة وكأنني غير موجود. قال هذا وهو ينظر إليّ ليتأكد من أنني أفهمه ثم مضى متسائلًا: هل من الطبيعي أن ألتقيها الأسبوع الماضي ثم أخطبها على الفور؟ هذا ضد طبيعتي وضد طبيعة الأشياء.. هل كانت متلهفة على الخطوبة والزواج إلى هذا الحد؟ هل كانت تحب كمال وتغيظه بي؟ أنا لا أعرف ماذا حدث.. لقد كانت معي وفي اليوم التالي تمت خطبتها.. هل هذا معقول؟.. لقد صدمتني وآلمتني بشدة ولا أدري كيف واتتها الجرأة لتفعل هذا بي.
قلت له: ألم تتحدث إليها لتفهم منها حقيقة الأمر؟
قال: كلمتها في التلفون فردت بشكل طبيعي وقالت: بارِك لي يا حسن.. أنا اتخطبت!
وجدت نفسي رغمًا عني أبتسم ثم تخرج مني ضحكاتٌ لا إرادية. قال: أتضحك؟.. تضحك على الخيبة ؟
قلت: لا خيبة ولا حاجة.. يبدو أنك أعطيت صداقة عادية حجمًا أكبر من اللازم؟
قال: لو هي صداقة عادية فهل يمكن أن تستمر بعد أن تمت خطبتها؟
قلت له: سأسأل خطيبها وأقول له يا أبو كمال.. حسن صاحبنا يريد أن يستمر صديقًا لخطيبتك فهل توافق؟
قال: كف عن السخرية من مشاعري وحاول أن تحس بما ألاقيه.
قلت: يا رجل يا ظالم.. لقد سألتُك هل تحبها فقلت إنك لا تدري.. وأنت بنفسك تقول إنك لم تحدثها عن أي مستقبل تكون فيه معك، فلماذا تلومها إذن؟
كنت أرى أن صدمة حسن ليست من طعنة أو خيانة كما أراد أن يصور لنفسه، لكنها عبارة عن عدم توافق في التوقعات.. هو كان يرسم خريطة طريق لمستقبلها معه قرر سلفًا أنها يجب أن تتضمن كل التوابل الرومانسية.. أرادها أن تصعد معه سلم الحب خطوة خطوة وأن يقضيا في البداية أيامًا جميلة دون لافتة أو عنوان، ثم يمضي معها في الخروج والسينما والرحلات واللمسات والقبلات.. ثم في

النهاية إذا سارت الأمور سيرها الطبيعي ووجد أنه غير قادر على الاستغناء عنها يدخل عليها بالخبر السعيد!

لم أكتفِ بالحكاية من جانب حسن ورأيت أن أستفيد من معرفتي بالطرف الآخر، فذهبت إلى نبيلة في الجامعة وجلست معها في الكافيتريا ثم طرحت عليها أسئلتي كلها بصراحة.

قالت: لن أكذب عليك فأنت صديق وأخ وأعرف أنك سوف تفهمني.. أنا مثل أي بنت تحلم بالحب والزواج والأسرة.. لقد التقيت حسن بالصدفة في الشارع وجمعني به السير لأكثر من ساعتين ثم جلسنا وأكملنا الحديث.. لم أكن يومها أعرفه جيدًا فوثّق هذا اللقاء من صلتي به، وبصراحة رأيته إنسانًا ابن حلال كما يقولون.. والبنت غير المرتبطة كما تعلم لا تمانع في أن يتقدم لها إنسان ابن حلال.. منحته فرصة أخرى حتى يقول أو يلمّح لكنه لم يقترب من الموضوع.. ومن الطبيعي أنني حين أقبل طلبه بأن نلتقي فإن هذا بمثابة خطوة أولى على طريق الارتباط؛ لأنني لا أفعل هذا بغرض التسلية أو إزجاء الوقت لأن للبنت سمعتها.. لا أقول لك إن الخروج معه ضايقني.. بالعكس فهو شخص لطيف وودود، وكنت على استعداد لأن أمنحه وقتًا أطول حتى يقرر ماذا يريد مني، لولا أن أتاني عرض مباشر من شخص آخر ابن حلال أيضًا.. فماذا كنت تنتظر مني؟.. أنا لست ملهوفة على الزواج، لكني في الوقت نفسه لا أترفع عليه ولا أتعامل باستهتار مع عروضه الجادة، خاصة وأنني لم أكن واقعة مع حسن في قصة حب.. لو كنا قد وقعنا في غرام بعضنا البعض لما اخترت غيره، لكن هذا لم يحدث.. كانت مجرد صداقة لست آسفة عليها وليت ظروف الحياة هنا كانت تسمح باستمرارها.

لم أشأ أن أقص عليها حكاية التصنيفات التي نضع الفتيات بها، ولم أرد لها أن تعرف أن حسن كان قد رسم لها خارطة طريق غير مضمونة، فإما أن تكون في منزلة الحبيبة أو تكون صديقة أو يضمها إلى قائمة من مشى معهن من الفتيات.. ويبدو أن الأنثى قد خلقها الله ولديها رادار يجعلها تحس بالسيناريوهات دون أن تفهمها ودون أن تعرف معلومات موثقة عنها، وربما أن هذا من لطف ربنا بها في علاقتها مع الصبيان الأوغاد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرحان.. والسوتيان الأحمر

لم يكن سرحان البواب يختلف عن غيره من بوابي الحي.. كلهم ينتمون لمحافظة بني سويف ويرتبطون معًا برباط القرابة والمصاهرة، ومن الواضح أن البيئة الطاردة الخالية من فرص العمل قد حولتهم من مزارعين في الريف إلى بوابين بقاهرة المعز.

ويبدو أن تفضيلهم لهذه المهنة عن العمل بأشياء أخرى متاحة كالعتالة وشغل المعمار عائد إلى أن وظيفة البواب أو الحارس في التسمية الحديثة تكفل لشاغلها السكن المجاني والحصول على الماء والكهرباء ببلاش.. حتى الأثاث والفرش يحصلون عليه من أهل الخير. شيء آخر كان يجعل الرجال يأتون من قريتهم وهم سعداء هو أن أعباء العمل بالعمارة كانت محدودة.. مجرد الجلوس بجوار الباب والاستماع إلى الراديو.. أما تنظيف السلم وقضاء الطلبات فكانت من نصيب زوجته وأولاده الصغار.. هذا غير أن الست زوجته تعمل بمنازل السكان وتخرج آخر الشهر بأكثر من مرتب وكيل وزارة، ثم لا تجد غضاضة في وضع المال كله في يد سبعها الأنتيخ لأنه هو الرجل الذي يصرف!

يعني البواب بالصلاة على النبي أصبح عمدة.. بل يعيش أفضل من حياة العمدة في الريف.. أكل ومرعى وقلة صنعة!

كان من نصيب سرحان أن يكون بوابًا للعمارة الكبيرة الكائنة بميدان بركة الرطلي، وكانت شهرة العمارة تعود إلى أن سطوحها كانت تقبع به «زمارة الخطر» بعد أن وضعها رجال الدفاع المدني هناك نظرًا لارتفاع العمارة وإشرافها على الحي كله. وزمارة الخطر هذه يعرفها من عاصروا زمن الغارات الإسرائيلية على المدن المصرية، وكان إطلاقها يعني ضرورة إطفاء الأنوار والنزول إلى المخابئ فورًا، ثم تتم العودة إلى الحياة الطبيعية مع انطلاق زمارة الأمان عقب ابتعاد الطائرات المعادية.

تميزت العمارة كذلك بوجود أسانسير فيها خلافًا لمعظم البيوت المجاورة، ومع ذلك لم يكن يعيش لها بوابين! كان الواحد من هؤلاء يأتي وبعد قليل يختلف معه أحد السكان لأنه لم يأتِ له بطلبه بسرعة أو لأنه نسي أن يمسح زجاج السيارة ثم يصّر الساكن على طرده.. وسرعان ما يتم جلب غيره من أبناء نفس القرية. أما سرحان فقد عمّر أطول من اللازم وأمضى حوالي ستة شهور دون أن يرتكب خطأ مما يستوجب الإقالة.

في الحقيقة أن السكان كانوا في غاية الغرابة..لم يكن أحدهم يغضبه أن يرى البواب يرغم زوجته البائسة الممصوصة على مسح السلم وقضاء الطلبات من السوق وهي حامل في شهرها الأخير، بينما يجلس هو يدخن الشيشة ويسمر مع أقرانه الأنطاع.. إنما كان يغضبهم ألا يهب البواب واقفًا إذا اقترب جناب الساكن من باب العمارة، وكانوا يتسامحون مع أعمال السخرة التي يقوم بها الأطفال الصغار ولا يخطر ببال أحدهم أن ينبه الحيوان إلى ضرورة أن يقوم هو بالشغل وأن يترك الصغار لمدارسهم أو لطفولتهم!

كانت علاقتنا بهذه العمارة بالذات علاقة توجس، وكنا نشعر أن سكانها يختلفون عنا، فمعظمهم يمتلكون سيارات على خلاف بيتنا والبيوت المجاورة، وكذلك لا يقيمون علاقات ود أو صداقة بأحد من خارج العمارة، ومع ذلك فقد كان يطيب لأطفال المنطقة التسلل للعمارة من أجل ركوب

الأسانسير وممارسة لعبة الصعود والهبوط، لذلك كان من أولى مهام البواب منع العيال من الدخول والاقتراب من المصعد.
من هذا الباب جاءت معرفتنا بسرحان البواب عندما نسي نفسه يومًا وقام بمد يده بالضرب إلى بعض أطفال بيتنا. في ذلك اليوم استدرجناه نحن طلبة الثانوي خارج العمارة وأوسعناه ضربًا حتى علا صوته بالصراخ ووعدنا بألا يكرر فعلته. بعد أن سوينا الأمر معه، أردنا أن نصالحه فجعلناه يشارك معنا في بعض مباريات الكرة التي كنا نلعبها بنفس الميدان بجوار العمارة. كان يخلع جلبابه ويقف حارسًا للمرمى بملابسه الداخلية!
مرت الأيام بسرحان هادئة حتى شوهد في أحد الأيام يقف في الصباح بجوار الباب ممسكًا بيده قطعة ملابس حمراء أخذ يتفرس فيها بلهفة، وبدا في وقفته هذه كأنه غائب عن الدنيا.
بعد قليل جلس على الدكة في حالة لهاث، ولما أقبلت سيدة من السكان قام وفرد قطعة الملابس الحمراء أمامها وهو يتساءل في براءة: هل هذه تخصكم يا مدام؟ نظرت المرأة في دهشة إلى السوتيان الذي يمسكه سرحان ثم أشاحت عنه وهي ترد بعصبية: ما هذا؟
قال سرحان وهو يتبعها إلى داخل العمارة: لا أدري، لقد وجدته ولا أعرف أصحابه.. هل يخصكم يا مدام؟
صفقت باب الأسانسير وهي تصرخ في وجهه: لا.
بعدها أقبلت إحدى الآنسات عائدة من الجامعة فقام سرحان وأراها السوتيان سائلًا عما إذا كان يخصها.. ارتبكت قليلًا ثم تركته مهرولة نحو السلم دون أن ترد عليه.
الغريب أنه عند مرور أحد الرجال كان يخفي مشد الصدر الأحمر الذي يبدو أنه عثر عليه في المنور. كان يريه للإناث فقط، ويبدو أن الملعون كان يستمتع برؤية رد الفعل على وجه من يسألها من النساء!
كان سرحان طبيعيًا طوال الشهور التي قضاها بالعمارة ولم يلحظ أحد أي تصرفات مريبة تشوب سلوكه، لكن يبدو أن السوتيان الذي سقط من حبل غسيل إحدى الشقق قد أشعل رأسه وملأها بأفكار لا يعلم أحد كنهها.
مر اليوم كله على هذا الحال ولم يترك سرحان واحدة تصعد أو تنزل دون أن يدخل عليها بالبرا الأحمر، ويبدو أنه اندهش لأن واحدة منهن لم تعلن أنه يخصها..ترى هل شعرت صاحبته بالكسوف من سرحان وآثرت أن تتنازل عن سوتيانها على أن تتناوله من يد البواب الذي قضى معه وقتًا سعيدًا؟
في اليوم التالي بدا أن سرحان ينوي المضي في فيلمه الذي بدأه بالأمس، عندما خرج إليه الحاج شاهين وهو رجل كُبارة من السكان فنهره قائلًا: ماذا جرى يا سرحان يا ابن الجزمة؟ هل ستمضي عمرك تبحث عن صاحبة السوتيان؟
ارتّج على سرحان فارتبك قائلًا: كيف عرفت يا حاج؟
رد شاهين: منذ الأمس ولا حديث بين السكان إلا عن البواب الحيوان الممسك بقطعة نسائية داخلية وكأنها كنز عثر عليه..قال الحاج شاهين هذا وهو ينظر للبواب بعين فاحصة ثم حذّره: إياك أن تعرضه مرة أخرى على واحدة من السكان وإلا زججت بك في السجن..هل استحليت الحكاية يا ابن الكلب يا واطي؟
كان سرحان ينظر في الأرض متصنعًا الأدب. تركه الحاج شاهين ومضى إلا أنه عاد إليه بعد خطوتين متسائلًا في حدة: قل لي يا وِلْد الفرطوس: ما سر هوسك بالسوتيان؟ ألا ترتدي امرأتك هذا النوع من الملابس؟

قال سرحان: لا..لا ترتدي النسوان عندنا هذه الأشياء يا عم الحاج.
ماذا يرتدين إذن لمسك الصدر؟.. تساءل الحاج شاهين.
رد سرحان: يتركنه يترجرج «ربّاني» أو يشددنه بقطعة قماش يلفونها حوله!
قال شاهين وهو متعجب: إذن اعطه لامرأتك واحتفل معها بتدشينه، لكن إياك أن تتحدث مع ساكنة بشأنه مرة أخرى.. فاهم؟ رد في خضوع: فاهم يا بيه.
الغريب أن السيدات بالعمارة عندما سألن نبوية زوجة البواب عما إذا كانت أخذت السوتيان من سرحان فإنها نفت واتضح أنها تجهل الموضوع تمامًا.
ماذا ترى الملعون قد فعل بأيقونته الحمراء إذا كان لم يقدمه لنبوية؟
بعد عدة أيام شاهده أحد السكان يقف بجوار شركة بيع المصنوعات في شارع الجد ينتظر السيدات المغادرات للمحل، ثم يفرد سوتيانه في وجه الواحدة منهن قبل أن يسألها: هل يخصك هذا يا مدام؟.. لقد عثرت عليه بالجوار!
شاع الخبر في الحي..لقد جُن البواب وأصبح وجوده خطرًا على النساء بالشارع، بعد أن صار مهووسًا وممسوسًا بالسوتيان الذي عثر عليه في المنور، واستخسره في زوجته وآثر عليها أن يستخدمه في خدمة الشبق المريض بداخله.
كان الرأي هو ضرورة طرده وإحضار بواب جديد، غير أن بكاءه وتضرعه هو وزوجته واستعطافه السكان وقسمه أنه تاب وأناب، ونوى أن يحرق السوتيان ولا يعود إلى خطأه مرة أخرى..كل هذا جعلهم يتراجعون ويمنحونه فرصة ثانية.
عندما علمنا بالموضوع لم نتركه على حاله. طلبناه ليلعب معنا مباراة لكننا كنا نعتزم سؤاله عن حقيقة الأمر الذي اختلطت فيه الحقيقة بالأساطير في خيال الطلبة وصبية المنطقة. أخبرنا سرحان بعثوره على قطعة الملابس الحمراء في المنور، لكنه أنكر محاولات التحرش وأكد لنا على سلامة نيته في إعادة القطعة لصاحبتها. حاول الصبية استمالته ليريهم السوتيان لأن القصة بأكملها قد أشعلت خيالهم، ورغم كل الضغوط التي مارسناها عليه فإن الوغد رفض أن يرينا إياه وزعم أنه رماه في الخرابة!
ومع أنه حاول أن يبدأ صفحة جديدة إلا أن النساء أصبحن ينظرن إليه في قلق وبدأن يلحظن نظراته التي لم تكن بادية من قبل.. لم يدر أحد هل كانت نظراته جائعة نهمة طوال الوقت أم أن السوتيان الأحمر هو الذي أشعلها؟
أصبح وجود سرحان مصدرًا للتوتر المكتوم بين السكان..لقد أضاعوا فرصة التخلص منه ولم تعد لديهم حجج الآن لطرده، خاصة أنه كان يتظاهر أمام الرجال بالورع والانكسار، وكان يردد معظم الوقت كلمات المتدينين، فإذا سأله أحد: هل نظفت السيارة؟ قال: نظفتها إن شاء الله! وإذا طلب ساكن كيلو بطاطس من السوق رد عليه قائلًا: قدّر الله وما شاء فعل..أيّ كلام وأيّ تخاريف..المهم يكون لها جرس ديني يغطي جهله ويخفي الكلب الذي يعوي داخله!
مضت فترة نسي الناس فيها ما كان من أمر سرحان، حتى أتى يوم كان ككل الأيام، لكن يبدو أن الذئب الكامن عند البواب قد تثاءب من قلة العمل وقرر أن ينهض.
لمح الست مديحة عند الأسانسير وكانت تبدو عليها آثار الإرهاق فتقدم إليها عارضًا خدماته..أي حاجة أقدر أقوم بها يا مدام؟
أمسكت مديحة بالحائط تستند إليه وقالت: لا أدري ما بي يا سرحان..لقد شعرتُ بدوار مفاجئ ويبدو أنني نسيت قرص الضغط.

نظر سرحان حوله يستطلع باب الشارع والسلم ثم قال: أنا عندي دواء فعال أعطيته لابنتي ليلة أمس عندما ارتفعت حرارتها..هل أحضر لك منه؟
قالت الست مديحة وهي تجلس على إحدى درجات السلم: شكرًا يا سرحان.. سأرتاح قليلًا ثم أصعد لآخذ دوائي.
كانت مديحة تشعر بالدوار فلم تنتبه لسرحان وهو يقترب ويميل عليها هامسًا: عندي لبوس ممتاز ممكن أن أضع لك واحدة تشفيكِ بإذن الله كما فعلتُ مع البِت بنتي.
لم تصدق مدام مديحة ما سمعت، ورغم الدوار والوهن فإنها انتفضت صارخة وقامت تسب البواب السافل وتلعن سنسفيل أجداده..و يبدو أن الذهول والصدمة قد جعلاها تستفيق وأمداها بقوة جعلتها تركض خلف سرحان وهو يفر ويطلق ساقيه للريح.
خرج السكان على صوت الصراخ يستطلعون الأمر فوجدوا مديحة منهارة. عندما أخبرتهم بما قاله لها سرحان، فإنهم رغم الابتسام التلقائي من شذوذ الفكرة وغرابتها قد استحالوا إلى كتلة جمر جماعية تنتظر عودة سرحان لتحرقه وتكويه بالنار.
طال انتظار السكان ولم يرجع سرحان..ترك لهم الزوجة والعيال وسرح في أرض الله.
عقد السكان اجتماعًا بعد عدة أيام من اختفاء البواب وقرروا أن يجعلوا نبوية هي الحارس، وقد كانت على أي الأحوال تقوم بكل الشغل في وجود سبع البرمبة.
بعد مضي مدة على هروب سرحان، فإن نبوية التي عرفت طعم الفلوس لم يكن يخيفها سوى أن يعود المَوْكوس فتفقد عملها وتعود إلى حظيرة الكلب من جديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سامحيني يا أم ألبير

كانت المدرسة تموج بالشخصيات العجيبة من الطلبة.. كل الأنواع كانت موجودة، أولاد الناس الطيبين إلى جانب أبناء الأبالسة والشياطين. من ضمن النوع الأخير كان زميلنا رءوف جوني، وهو تلميذ هبط علينا منذ بدء العام الدراسي منقولًا من مدرسة فرنساوي طردته ولم تحتمل فشل نتائجه الدراسية وسوء سلوكه.

كان رءوف يجيد اللغة الفرنسية على العكس منا جميعا، ولهذا كان يوزع علينا شتائمه البذيئة بلغة لا نفهمها. وعلى الرغم من مظاهر الإجرام البادية عليه فقد كان يكتب الشعر والأغاني، وكانت له تجارب معقولة بالقياس إلى حقيقة أنه تلميذ منحرف! حكى لنا رءوف أنه حمل أشعاره وذهب إلى منزل المطرب محرم فؤاد في الزمالك لينتقي منها ما يناسبه للغناء، لكن خادم المنزل نهره وهدده بكسر رجله لو فكر في المجيء مرة أخرى!

كان لرءوف جوني الفضل في نشر القمار بالفصل، ففي الفترات البينية ما بين كل حصة والأخرى كان يخرج أوراق اللعب من طيات ملابسه، ويشرع في اللعب مع جمعة وزكريا وباقي شلة التلامذة الفاسدين الذين يسكنون إلى جواره بشارع الجيش.

والحقيقة أن زكريا هو الذي أخبرنا أن أم رءوف تفتح شقتها للقمار في بعض أيام الأسبوع، وأنه هو شخصيًّا ومعه الشقي جمعة قد حضرا بعض هذه السهرات وشاركا في اللعب.

كانت حكايات زكريا عن الحياة بشقة رءوف جوني تثير خيالنا باحتوائها على كل المشهيات من قمار وخمر بالإضافة إلى ليلى أخت رءوف التي كانت تجلس معهم أحيانًا أثناء اللعب، وأحيانًا تلعب على البيانو الكبير الموجود بالصالة ثم سرعان ما تختفي في حجرتها لتذاكر!

أدهشتنا حكاية البيانو إذ إن أيًّا منا لم يكن بشقته بيانو، وكانت فكرتنا أن من يوجد ببيته بيانو لا بد أن يكون من الأكابر.. لا بد أن الملعون رءوف كان ينتمي لأسرة غنية تدهورت أحوالها، أو لعل أمه كانت غانية واتصلت في فترة من حياتها ببعض الأثرياء الذين تركوا لها تذكاراتهم.. هكذا كنا نفكر!

لا أنكر أننا جميعًا تمنينا أن نذهب في واحدة من هذه الليالي الملاح ونقضي وقتًا طيبًا في ممارسة ما تيسر من رذيلة، غير أن ما كان يمنعنا هو اليد القصيرة، ذلك أن أرخص كوب خمر كانت تقدمه أم رءوف كان ثمنه خمسة قروش، هذا غير بولة البوكر أو الكونكان.. لذلك كان لا بد من الاستعداد بجنيهين أو ثلاثة قبل المغامرة بالذهاب عند جوني.

لم يبدُ أن رءوف يخجل من أسرته أو من سيرة أمه المنتشرة بالمدرسة باعتبارها تفتح شقتها للقمار.. بالعكس كان يبدو منتشيًا واثقًا من نفسه، والظاهر أن قيم الطبقة الوسطى التي تتضمن الحياء وطلب الستر وتحاشي الفضيحة لم تكن متغلغلة في بيتهم.

كان نادر هو الزبون الأحدث ضمن من ذهبوا عند جوني، وقد عاد محملًا بحكايات وروايات عن الضحك والفرفشة والصخب والخمر، وأخيرًا عن الفلوس والمكسب.. لقد استطاع نادر أن يظفر في ليلته هذه بعشرة جنيهات كسبها من تجار العتبة الذين تواجد بعضهم على مائدة القمار، وقد بانت عليه النعمة من خلال بنطلون الجينز الجديد والقميص المشجر.

لم أتردد في سؤال نادر عن الفلوس التي ذهب بها إلى منزل آل جوني ومن أين حصل عليها. اعترف نادر ضاحكًا أنه كان ينتظر منذ مدة أن ترسله أمه لشراء حصة التموين الشهري من عند البقال؛

ليمسك في يديه بالجنيهات الثلاثة ويهرع بها وفي يده بطاقة التموين إلى البيت السعيد، حيث تفوق على المقامرين جميعًا ومنحهم أوقاتًا عصيبة وأخذ الفلوس وعاد إلى البيت بعد منتصف الليل، حيث اعتذر للست الوالدة لأن المذاكرة مع أصدقائه شغلته عن إحضار التموين، وقد صالحها وأحضر لها الزيت والسكر والأرز والصابون في اليوم التالي!

كان نادر عفريتًا لا يشق له غبار، وقد تمكن من فنون الكوتشينة من طول جلسته على قهوة بارومة، وتتلمذه على يد «صدّيق» القهوجي وشوقي الإسترليني تاجر العملة، فأصبح ضليعًا في الكومي والشايب والكونكان والإستيميشن إلى آخر ألعاب الورق، وكان يحضر إلى المدرسة في الأوقات التي يحددها بنفسه مستندًا إلى طوله الفارع وبنيانه القوي وخشية المدرسين من غباوته!

الحقيقة أن حكايات جمعة وزكريا عن القمار وإثارته، والقعدة الحلوة في بيت أم رءوف، علاوة على النصر الذي حققه نادر وعودته المظفرة بالجنيهات العشر قد فتحت شهيتنا جميعًا، فتمنينا أن نحظى بليلة من هذه، وزاد من رغبتنا إحساسنا بأن بيت جوني يلعب بعدالة وشرف فيسمح للكسبان بالرحيل دون مشاكل، على العكس مما اعتدنا أن نراه في الأفلام، حيث يصطادون الزبون الكروديا ولا يسمحون له بالفوز أبدًا!.. ومَن يعلم ربما استطاع الواحد أن يقترب من الجميلة ليلى ويحظى باهتمامها.. لا شك أنهم هناك لن يمانعوا في أن تراقص ابنتهم فتى أعجبها ويا حبذا لو تطور الأمر فمنحته شيئًا من قبلاتها!

ولكن كيف الذهاب والموضوع يحتاج إلى مبلغ وقدره؟.. لقد أثار موضوع التموين الذي حكاه نادر شجوننا؛ لأن هذه هي المناسبة الوحيدة التي يمكن للواحد منا أن يمسك في يده جنيهين وثلاثة.. وكنا بالفعل اعتدنا الذهاب إلى هذا المشوار الشهري للبقال التمويني.

قال لي نادر: توكل على الله ولا تفكر كثيرًا.. في أول الشهر بعد أن تمسك بفلوس التموين نلتقي على القهوة في المساء ونذهب عند أم جوني، ونظرفهم في العمق ثم نتركهم يتألمون ونعود بالغنيمة!

كانت ثقة نادر تمنحني إحساسًا بأن بإمكاننا غزو العالم وليس منزل رءوف المنحرف فقط.

في اليوم الموعود عدت من المدرسة لأفاجأ بأن مهمة إحضار حصة التموين الشهري قد قام بها أخي، ولم يعد هناك أمل في أن أضم يدي على الجنيهات.. شعرت باليأس والغضب.. لماذا لم ينتظروني مثل كل شهر؟

في المساء كان لا بد أن أذهب للقاء نادر على القهوة لأحكي له عن الخيبة الثقيلة وأعتذر عن الذهاب.

قبل الوصول للقهوة بقليل أبصرت ألبير زميلنا في الفصل يعبر الطريق. عندما لمحني أشار إليّ بالتحية. رفعت يدي تجاهه في لا مبالاة وأنا أفكر في الليلة التي ضاعت، لكن لدهشتي فوجئت بألبير يعاود عبور الطريق ويأتي نحوي للسلام.

قال: رأيتك فقلت أسلم عليك.

قلت: فيك الخير يا ابن أم ألبير.

ظل واقفًا في صمت فقلت ضجرًا: لك شوق في حاجة؟

قال خجلًا: أحسست من منظرك أنك مهموم أو مشغول البال لأني حييتك فلم تبالِ.

نظرت إليه فوجدت عينيه تمتلئان بمودة حقيقية.. عجيب هذا الولد ومختلف عن كل العيال الصيّع والشبيحة الذين يعج بهم الفصل.. مختلف لدرجة أن العيال السفلة كانوا يسطون على سندوتشاته فيتركها لهم دون شكوى. كانت تربيته وأخلاقه العالية تضايقني وكنت أرجو له أن يتعلم الخربشة حتى يستطيع العيش في فصل يغلب على تلامذته الإجرام. لكن سبحان الله.. يبدو أنه ليس بالضرورة

أن يكون المرء مجرمًا ليعيش وسط الذئاب.. كان ألبير على خلاف غيره يحظى بحصانة أمّنته من أن ينال الصفعات والركلات التي كان يأخذها أمثاله من الضعفاء، بل إنني كنت أنظر له بحسبانه طاقة أمل وسط طوفان الزبالة التي يمثلها معظم طلاب المدرسة.
لم يكن المجرمون والفتوات بالفصل يضربون ألبير، بالرغم من استيلائهم على سندوتشاته، ولعلهم كانوا يميزون بين النُبل عند ألبير والضعف الممزوج بالخسة عند غيره من الهاموش، فحفظ له هذا مكانة طيبة في فصل الشمحطجية!
سار معي في الطريق حتى وصلنا للقهوة، حيث كان نادر يجلس مجعوصًا يدخّن الشيشة على الرصيف.
عندما أبصر ألبير معي ضحك بشدة، ثم أطلق أصواتًا بذيئة من الأنف قبل أن يبادر بالسؤال: لماذا أحضرت معك هذا البوبي الحلو؟ هل هو تميمة تجلب لنا الحظ عند أم جوني؟
قلت له: كُف عن الاستظراف وحياة أمك، لقد قابلته بالصدفة يعبر الطريق، وقد جئت أخبرك بأن المشروع فشل والتموين أحضروه في غيابي.
سرح قليلًا ثم قال: اجلسا لنفكر في الأمر، ثم التفت إلى ألبير: إلى أين كنت ذاهبًا يا بوبي؟
قال ألبير: كنت في طريقي للأجزخانة لشراء دواء لأمي؟
نظر إليه نادر مرتابًا ثم سأله في تحفز: معنى هذا أن معك فلوس؟
رد ألبير ببراءة: معي عشرة جنيهات سأشتري منها الدواء.
قال نادر: وباقي العشرة جنيه؟
قال ألبير ضاحكًا: الباقي هو مصروف البيت طوال الشهر لأن هذا المبلغ هو قيمة معاش والدي بالكامل.
نظر نادر نحوي وفي عينيه أسئلة. فهمت قصده فبادرت بتحريك رأسي يمينًا وشمالًا بما يعني الرفض القاطع.
كان ألبير وحيد والدته يعيش معها بغرفة فوق السطوح بشارع النزهة، ولم يكن لأمه سواه بعد أن مات زوجها مبكرًا وتركهما يعتمدان على معاشه الضئيل.
كان أكثر ما يلفت انتباهي في ألبير هو النظافة الشديدة.. كانت ملابسه قديمة لكنها نظيفة ومكوية على الدوام، وكانت هيئته المرتبة وكتبه وكراريسه كأنما توجه رسالة للعالم، بأن الفقير يمكن أن يكون نظيفًا إذا أراد!
قال نادر: اسمع يا ألبير.. هل تثق بي؟
نظر ألبير في حيرة ثم ابتسم قائلًا: طبعًا أثق بك.
قال نادر: دعك من مظاهر الشقاوة التي تراني عليها، لكنك ولا شك تعلم أنني رجل وعند كلمتي وإذا وعدت وفيت.
تلعثم ألبير ولم يعرف كيف يجيب فبادره نادر: هل تحب أن تكسب خمسة جنيهات؟
هنا لم أجد مفرًا من التدخل فقلت لألبير: روح يا ابني هات الدوا لأمك وتوكل على الله من هنا.
هبّ نادر في وجهي مثل وابور الجاز: يعني انت لا منّك ولا كفاية شرك.. كنت أنتظر أن تأتي بالفلوس فأتيت صفر اليدين، وبعد ذلك تريد أن تمنع الخير عني وعن نفسك وعن ألبير البوبي.. يالك من شرير!

كان ألبير يرقب الحوار في صمت ويبدو أنه لم يتعجل الرحيل بعد أن ثار فضوله لفهم المسألة، فانتهز نادر الفرصة وقال: شوف يا ألبير، نحن في طريقنا إلى بيت رءوف جوني.. تعرفه؟
قال ألبير: نعم أعرفه.. هو معنا في الفصل.
قال نادر: برافو عليك.. هناك نلعب بعض البوكر وبعض الكونكان ثم نحصد المال ونرحل.. يعني بالعربي العشرة جنيه بتاعتك يمكن أن تسفر عن ثلاثين نقتسمها بما يرضي الله. رد ألبير: لكن القمار خطيئة!
قال نادر: أبدًا وحياتك.. أنت جرّبتْ؟ فهز ألبير رأسه نفيًا، فقال نادر: عندما تجرب ستعرف إذا كان خطيئة أم لا!
قام نادر وتأبط ذراع ألبير وأشار لي أن أقوم، فمشينا من ميدان الجيش مرورًا بباب الشعرية، ثم وصلنا لقرب محل تسيباس بآخر شارع الجيش قبل العتبة حيث يوجد بيت رءوف، وطول الطريق لم يتوقف نادر عن سرد تناتيف من مغامراته القديمة في المدرسة الإعدادي، وكذلك عندما سافر هولندا لزيارة أخيه الذي يعيش هناك حيث تعرف على الكثير من الفتيات الجميلات.
كان ألبير يسير إلى جوارنا كالمسحور، فقد كان مهمشًا طول الوقت ولم يعهد اهتمامنا به أبدًا، وبالذات اهتمام أكابر الفصل من القبضايات والصقور، وها هو نادر أبو غنيمة ذات نفسه يسير متأبطًا ذراعه كصديق قديم.
بعد أن دخلنا حوش البيت وقبل صعود السلالم كانت يد ألبير قد انفتحت وتركت الورقة أم عشرة تتداح وتقع في يد نادر، الذي تلقفها في سرور قبل أن ينظر نحوي غامزًا بعينه كعلامة على تحقق المراد.
دخلت إلى بيت جوني وأنا أدعو من كل قلبي أن نكسب في اللعب لنعيد للمسكين ألبير فلوسه. رحب بنا رءوف ولم يخف دهشته لوجود ألبير معنا.
أجلسنا إلى طاولة كبيرة بالصالة ثم أحضر من المطبخ زجاجة «رأس العبد» ووضعها أمام نادر قائلًا: إيدك على ربع جنيه يا جميل حتى تشرب براحتك أنت وضيوفك.. قال هذا ثم أحضر ثلاثة أكواب وضعها أمامنا.
سحب نادر الكوب من أمام ألبير وأعطاه لرءوف: املأ هذا بالحليب لألبير.
قال رءوف: بجد؟
رد نادر: طبعًا بجد.
لكن المدهش هو أن ألبير اعترض وعلا صوته: لا.. سأشرب معكم!
صب نادر المشروب المريع وقال وهو يناولنا الكئوس: الخطيئة حلوة يا ألبير!
بعد قليل ظهرت أم رءوف بجسدها الكبير ورأسها الضخم وصوتها الجهوري فرحبت بنا قائلة: أهلًا بالكتاكيت، ثم نظرت إلى نادر وقالت: أنت لأ، أنت مش كتكوت.. أنت ديك رومي يا وسخ.. كان نادر هو الوحيد بيننا الذي له بصمة في هذا البيت!
بدأ اللاعبون يتوافدون على الدار.. بعضهم من الجيران ومنهم بائعون بالعتبة وتجار بالرويعي ومنهم طلبة جامعة.. خليط عجيب متنافر جمع بينهم حب المقامرة وتناول الشراب الرخيص في المساء.
فك نادر العشرة جنيه من خالتي أم رءوف وأعطاني منها جنيهين وأعطى لألبير جنيهًا.
لم أكن لاعبًا ماهرًا مثل نادر، كما لم أكن في خيبة ألبير، لكنني اكتسبت خبرة محدودة من خلال القهوة، وفي الحقيقة كانت رغبتي في الذهاب واللعب وتحقيق المكسب لا تقوم على أساس قوي،

وإنما تستند إلى ثقة في نادر وقدرته على قلب الدفة في المواقف الحرجة والخروج فائزًا، وكانت هذه الثقة عائدة إلى أنني كونت معه ثنائيًّا على القهوة أكثر من مرة وقد حققنا معًا نتائج طيبة في مواجهة لاعبين أقوياء.
بدأ اللعب هادئًا حذرًا.. الجميع يجس النبض ويتحسس وقع أقدامه، وكنت أشارك في كل دورة بشلن أو ببريزة، ومن الواضح أن هذا لم يرق لبعض تجار الموسكي ممن كانوا معنا على المائدة، فانتقدوا «الضرب الضعيف» وطالبوا بأن نرفع الضرب حتى يكون للعب معنى. هنا أخذ اللعب يسخن والخسائر تتسارع، كما بدأت الرءوس تدور من الشراب، ثم أقبلت ليلى أخت رءوف. ظهرت في توقيت لا أدري لماذا ظننت أنه محسوب.. ظهرت بعد أن عمّت البلوى وبدأت نذر الغضب تظهر على وجوه الخاسرين.. كانت الخسائر كبيرة ومعظمها لصالح أهل الدار، رءوف وأمه وابن عمته.
أخذت ليلى في العزف فأراحت الأعصاب المشدودة، وكنت قد خسرت جانبًا كبيرًا من الجنيهين وطلبت إمدادات من نادر الذي لم أعهده عصبيًّا بهذا الشكل.. مرحه المعتاد تلاشى وسخريته التي ميزته طول الوقت لم تعد موجودة.. ظهرت عليه الجدية والتحفز.. من الواضح أنهم استعدوا له بعد أن أهانهم في زيارته الأخيرة وأخذ فلوسهم.
أخذت خسائرنا تتوالى وازداد تشبث ليلي بالبيانو فعزفت موسيقى فيلم الأب الروحي، ورأيت ألبير يقوم من جانبي بعد أن خسر الجنيه، ويذهب إلى حيث ليلي بجوار البيانو ثم يدخل معها ويشاركها العزف.
كان من الواضح أن ألبير يلعب على البيانو بمهارة وبدا لي أننا بسبب اعتياد القبح والسفالة غير مؤهلين للحكم على الناس.. ها هو زميل لنا نراه كل يوم ولا نعرف أنه يتذوق الفنون ويجيد العزف على الآلات الموسيقية.. لا بد أن هذه المهارات قد تعلمها في الكنيسة.. فلا المدرسة ولا البيت تسمح بشيء من هذا!
قامت ليلى وتركت العزف لألبير ثم شرعت في الرقص بثوبها القصير فملأت المكان بالدلال.. كنت أتابع مبهورًا وأنا أدخن بكثافة ورأسي يدور،بينما نادر ينزف الجنيه تلو الجنيه وأكواب الخمر الرخيص تنزل أمامي فأشرب منها ممتعضًا ولا أتوقف!
سكرت حتى لم أعد أقوى على فتح جفوني فوضعت رأسي على الطاولة وسافرت بعيدًا.
في الصباح كان نور ربنا يملأ المكان ورواد الشقة قد رحلوا جميعًا، ونادر يضع رأسه أمامي على الطاولة وذراعاه مفرودتان وفمه مفتوحًا بينما شخيره يشق السماء.. أما ألبير فقد تكوم على أريكة ونام كعصفور.
علا صوت أم رءوف في نوبة صحيان فجائية فأيقظت النيام:
ياللا يا روح أمك أنت وهو.. كل واحد على بيته.. ياللا بالسلامة. قالت هذا ثم أغلقت الباب وراءنا وعادت لتكمل نومها في غرفتها.
كان النوم والثمالة والذهول مطبوعين على وجوهنا ونحن نتدحرج في الشارع نحاول أن نستجمع الذاكرة لترتيب أحداث الليلة الماضية، ثم كان ألبير أول من استفاق فأخذ يلطم وجهه وهو يقول: العشرة جنيه.. أمي ستقتلني.
أيقظنا كلام ألبير ونبهنا لحقيقة ما حدث.. لقد لعبنا وشربنا وخسرنا فلوس ألبير. لا يحق لنا أن نشكو. عندما ربح نادر تركوه يرحل بالفلوس ولم يجادلوه.. ليس أمامنا سوى التسليم.
قال نادر: لا تخف يا ألبير سأعوضك في أقرب فرصة ولن أترك ثأرنا يضيع.

لم يكن ألبير يسمع ما يقال.. كانت الحقيقة البشعة ماثلة أمامه.. دواء أمه ضاع ومصروف البيت ضاع، والأمان والستر راحا في خبر كان.
بعد يومين كانت أم ألبير عندنا في المدرسة تسحب ورق ألبير لتنقله إلى مدرسة أخرى ليس بها هذه الأشكال الشائنة من الطلبة المجرمين. وبينما تعبر وفي يدها الدوسيه وفي اليد الأخرى ألبير ابنها لمحتني واقفًا مستندًا إلى عمود خارج مكتب الناظر فاقتربت مني وقالت بصوت خفيض: منك لله يا ظالم.
لم أعلم ما حدث بعد ذلك ولم يحدث أن صادفت ألبير في أي مكان بعد هذا اليوم.. لكني ما زلت كلما مررت بشارع النزهة قرب ميدان الجيش وأبصرت البيت الذي كان يسكنه ألبير وأمه أتذكر ما حدث وأتمتم قائلًا في صدق مرير: سامحيني يا أم ألبير.. أنا ظلمتك يا ألبير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عربي أوكورديون

اصطدم بي بينما كنت أعبر مسرعًا في طريقي للخروج من المستشفى بعد زيارة أحد الأقارب.
توقفت لبرهة محاولًا أن أتذكر أين رأيت هذا الوجه.. ثم قفزت الذكريات إلى ذهني متتابعة.. هذا التومرجي الذي يقف أمامي محملقًا ومعتذرًا بعدما أطاح بي كان صديقًا لي في وقت من الأوقات، بل كان من أعز أصدقائي قبل أن تفرقنا الأيام.
عرفني كما عرفته وفتح أحضانه لي معانقًا ثم دعاني إلى كوب شاي بكافيتيريا مستشفى الدمرداش.
كنا في الثانوية العامة شلة من الأصدقاء جمعتنا جيرة المسكن وصداقة الشارع، وقرّبت بيننا هوايتان: كرة القدم والشطرنج.
كانت مباريات الكرة تأخذنا حتى آذان المغرب، وفي المساء كنا نقيم مسابقات للشطرنج على القهوة إذا توفر ثمن المشروبات، أو جلوسًا على حجر كبير كانت له شهرة في ذلك الوقت ويقبع على تخوم ميدان بركة الرطلي.
من الغريب أن المطاف انتهى بعربي هنا في هذا المستشفى في هذه الوظيفة، أمر غريب لأنه وبفرض أنه لم يكمل تعليمه ويدخل الجامعة فقد كان من الطبيعي أن يعمل بالفن.. لقد كان ينتمي إلى أسرة موسيقية، فوالده يعمل أوكورديونيست مع الفِرَق التي تعزف في الأفراح، وهو نفسه كان عازفًا ماهرًا ما زلت أذكر وقفته بالمدرسة في الطابور يعزف الأناشيد الصباحية.
طاف هذا بذهني ومع ذلك خجلت أن أسأله أي سؤال في هذا الشأن، وتركت الحديث يمضي في كلام عام مع كوب الشاي الذي دعاني إليه.
عدت بالذاكرة إلى أيام الثانوية وبالذات فترة النصف الثاني من العام الدراسي عندما بدأ العدد يقل في السهرات الليلية، نتيجة انكباب البعض على المذاكرة على حساب الشطرنج وكرة القدم، أما الأوفياء للّهو من أصحاب الأعصاب القوية فلم يسمحوا لشيء أن يعوقهم عن الحياة الطبيعية واستمروا يلعبون.. كل ما تغير هو أننا توقفنا عن الذهاب إلى المدرسة وأصبح اليوم كله حرًّا.
كانت السهرة تبدأ من بعد المغرب حين نصحو من النوم ويتأبط كل منا كتابًا أو كتابين وينزل من البيت ليذاكر عند «واحد صاحبه» مصحوبًا بدعوات الأهل الطيبين.
كان التجمع يبدأ عند «عربي» في بيته الآيل للسقوط والذي هرب منه معظم السكان وتركوه لنا نرتع فيه.
كانت عائلة عربي قد انتقلت لشقة أخذوها من المحافظة في مساكن الزاوية الحمراء. لم نكن نخشى سقوط البيت علينا، وهذا مما يدعو للدهشة عندما أفكر في ذلك الآن.. أحيانًا كان أحد أفراد الشلة يصعد إلى الطابق الأعلى الذي بدأت جدرانه تتشقق ويجوس داخل شقة هجرها أصحابها ليحضر منها مخدّة منسية أو طبقًا ضالًا نشتري فيه فول!
في هذا المكان المهدد بالسقوط قضيت أوقاتًا بالغة البهجة، عندما كان عربي يحضر الأوكورديون ويشرع في العزف والغناء، وكنت أحب غناءه وأغني معه. كان بطبيعة الحال متأثرًا في الغناء بالطريقة المعروفة في الأفراح الشعبية، وهو الذي طالما شارك أباه العزف في الأعراس، وكانت هذه الطريقة مما يروقني ويطربني خاصة عندما يشدو بأغاني محمد فوزي.. أي والله، ومال القمر، ويا ولاد بلدنا يوم الخميس.. وغيرها.

التفكير في العشاء في تلك الليالي كان يستغرق وقتًا طويلًا وينتهي في الغالب وقد حُسم الأمر لصالح حلة كشري من عند أحمد موسى في ميدان الجيش، أو لصالح سندوتشات طعمية من عند عدوي في شارع الشيخ قمر.. العجيب أن نفس محل الكشري ونفس سندوتشات عدوي ما زالت موجودة حتى الآن، لكن لم يعد لها نفس الطعم، والظاهر أن الأمر لا يتعلق كله بالصنعة والمهارة في الطبخ والإعداد، لكنْ هناك عامل أهم هو نحن.. كنا يافعين أصحاء تملؤنا الآمال والتطلع للحياة، كنا أصحاب شهية مفتوحة ومعدة تهضم الحديد.

بعد العشاء يبدأ التفكير في السجائر التي ينبغي أن تصمد حتى الصباح لكي لا يتعكر المزاج وتفسد الليلة.. كل واحد يضع ما معه من نقود وتتم عملية حسابية لنعرف كم سيجارة يمكن شراؤها.

في العادة كنا ننحاز لسجائر بوسطن أو بلمونت لأن السيجارة الواحدة كانت بقرش صاغ، أي أرخص من الكليوباترا التي تكلف السيجارتان منها خمسة تعريفات.

أي محاولة للمذاكرة من جانب أحد الجانحين كان يفسدها عزف عربي الجميل أو شجار لاعبي الشطرنج، الذي لا ينقطع حول من يأخذ اللون الأبيض فتكون له ضربة البداية، أو بسبب تبييت الملك مع لمس الطابية أولًا وهو خطأ شائع يقع فيه الهواة.. ومن لا يلعب شطرنج أو يغني مع عربي فإنه كان يندمج في حكايات وحوارات جانبية.. المهم أن أحدًا لم يكن يستطيع التركيز في المذاكرة، وكانت كل الليالي ضائعة.

في بعض الأحيان كانت تخرج من عندنا في بيت عربي الآيل للسقوط بعثات ليلية تمر على الأصدقاء الساهرين الذين يذاكرون بحق وحقيق في شارعنا والشوارع المجاورة، وكانت أنوارهم المضاءة تشجع على الصعود إليهم إما للسخرية منهم وبثهم حديث التيئيس وخلاصته: أن «اللي ذاكر ذاكر»، أو لاقتناص بضع سجائر ممن تكون ظروفه حلوة.

أحيانًا كنا نتوجه لقهوة قشتمر وندخل على لاعبي الشطرنج هناك كالصاعقة فنتحداهم، ونخرج وقد أشبعناهم هزائم وشربنا على حسابهم عشرات الطلبات.. كنا نرى أن اختراع اللعب على المشاريب هو أهم اختراع عرفته البشرية بعد البنسلين! ما شاء الله.. قرفة وسحلب وحلبة وكاكاو بالمجان، وكل هذا لأن أحدًا لم يكن في مستوانا.. لقد كنا من فصيلة اللاعبين العظماء، وهذه ليست مبالغة.. كان عددنا حوالي عشرة من بينهم سبعة على الأقل من عباقرة الشطرنج الذين يحار فيهم العفريت.

كنا نتدرب على الحساب الطويل، والشطرنج في النهاية ما هو إلا قوة التخيل والحساب بعيد المدى، وبسبب حداثة السن والغرور فإننا لم ننضم لأي فريق رسمي ممن يسافرون ويحصلون على ميداليات باسم الدولة، لكن كان يكفينا أننا نهزم الأبطال الرسميين في أي مكان نلقاهم به.

كنا كذلك نتوجه في جوف الليل إلى منطقة الحسين حتى نصل إلى قهوة «الشلق» التي كانت قبلة أبطال الشطرنج، وهناك تركنا علامات وندوبًا لدى الخصوم، وسجلنا انتصارات ضد كل من فكّر أن يواجهنا،و كثيرًا ما ينتابني الزهو إلى الآن وتعلو الابتسامة وجهي؛ عندما أتذكر أن أصدقائي كانوا يدخرونني في تلك الليالي لملاقاة أشد المنافسين مراسًا وأكثرهم خبرة.. ومن المؤسف أن المباريات التي كنا نسجلها على الورق والتي حملت انتصاراتنا على أعتى الخصوم، قد ضاعت ولم يتبق منها ما أؤكد به لنفسي أن ذلك التاريخ المجيد كله لم يكن حلمًا!

أما بالنسبة للمذاكرة والامتحان أصبح يدق الباب، فلم أكن أعيرها كبير اهتمام.. كنت أتصفح الكتب حين أصحو من النوم قرب المغرب وذلك قبيل الانطلاق إلى الحياة الحقيقية المثيرة في الليل بصحبة

الأصدقاء، وفي كل مرة كنت أزداد يقينًا بأن النجاح لا يستحق هذا الجهد الذي يبذله التلامذة الطيبون الذين يتعبون أنفسهم في المذاكرة.
جاء الامتحان فكنا نؤدي المادة ثم نخرج نحتفل ونلعب شطرنج قبل العودة للمنزل والاستعداد لليوم التالي.
ما زلت إلى اليوم لا أصدق أن أصدقائي ورفاق الليالي الجميلة قد رسبوا جميعًا في الثانوية العامة.. لم يشذ واحد منهم وينجح حتى بخمسين في المائة.. كلهم سقطوا بجدارة، ولا يمكنني أن أنسى ملامح الأسى والذهول على وجوههم عندما ظهرت النتيجة.. ليس بسبب الرسوب فقط، وإنما بسبب أنني نجحت وكنت الأول على مدرسة الأهرام الثانوية للقسم الأدبي، وهو الأمر الذي لم يغفروه لي قط فقاطعوني وابتعدوا عني، وقد عانيت حقيقة من نبذهم لي وتساءلت بيني وبين نفسي عن الذنب الذي جنيته، وهل كان ينبغي أن أرسب مثلهم حتى أحتفظ بصداقتهم؟.. هم في الحقيقة لم يكرهوني لكنهم استراحوا إلى فكرة أنني خنتهم وذاكرت!
لقد كنت في ذلك الوقت أتصور أنهم مثلي لا يحتاجون إلا للنظر في الكتب لمامًا، وتخيلت أننا سنصعد إلى الجامعة معًا، ولم لا؟ هم مثلي أبطال في الشطرنج وبيني وبينهم توافق في الميول والهوايات والنكات والتهريج، لكن يبدو أن هذا كان من أحلام البكور ومن أفكار الفتوة الساذجة.
احتجت إلى زمن طويل بعد ذلك لأفهم أن البشر مختلفون وإن اتفقوا في أشياء!
اضطررت بعد ذلك للانضمام إلى شلة جديدة من الناجحين والمتفوقين من رفاق الجامعة، لكن للأسف لم يكن بينهم من يضاهي أصدقائي في خفة الدم والجدعنة.. واليوم وقد قابلت عربي في المستشفى بعد هذا العمر أجد نفسي غير قادر على سؤاله عما حدث فيما مضى من السنين.. كنت أخشى أن تصحو الحساسية القديمة عندما ظنوا أنني غدرت بهم وذاكرت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سامية أنجاجيه

كانت الرحلة حلوة يملؤها المرح، وما جعلها كذلك هم رفاق الرحلة.. مجموعة من أصدقائي وجيراني بالحي اتخذنا القرار بعدما خرجنا من امتحان آخر السنة. كان الأصدقاء يتراوحون بين الإعدادية والثانوية وبينهما مَن في أولى أو ثانية ثانوي، وقد قررنا جميعًا أن نقضي أسبوعًا بالإسكندرية حتى ننسى الدراسة وهمّها. وقد يكون من المعلوم عن فترة المراهقة بالضرورة أنّ الأولاد لا يتحمسون للخروج مع الأهل وقضاء الإجازات معهم، بل ويعتبرون من يخرج مع أهله هو عيّل سخيف، بينما تكون الشلة هي محور الكون.. وربما يكون لهذا معادل أكثر وضوحًا في بلاد الغرب حيث يخرج الفتى من البيت ويعتمد على نفسه بعدما يكمل السادسة عشرة، ويكون منظره سيئًا أمام زملائه إذا كان لا يزال يعيش مع ماما وبابا!

لكن بالنسبة لنا في الشرق فإننا لا نحب الخروج مع الوالدين ولا نرحب بأن يأتي لنا أيهما في المدرسة ليسأل عنا، بينما نتمسك بالإقامة معهما في البيت وأخذ المصروف منهما، وذلك في حالة من النطاعة لا تخطئها عين!

أما بالنسبة للبنات فالوضع مختلف، فرغم انتماء الفتاة لشلة في المدرسة إلا أن تمسكها بالأهل يمنحها الأمان وخروجها معهم يتيح لها الدلال مع الحماية، ولا يمنع هذا من أن تكون متمردة في المنزل!

ركبنا في الدرجة الثالثة بالقطار وسعينا جهدنا للهروب من الكمساري، فمنا من نجح حتى النهاية في الركوب البلّوشي ومنا من اضطر لقطع تذكرة من بنها أو من طنطا على حسب مهارته.

من سيدي جابر توجهنا إلى شارع خالد بن الوليد حيث معقل المصيفين من الطبقة الوسطى. في ذلك الوقت كانت لأسماء مثل ميامي وسيدي بشر وكليوباترا شنة ورنة.. كانت هذه هي مصايف الناس المستورين بعد أن انتقلت الطبقة العليا إلى العجمي والمعمورة.

بعد مفاوضات مع أحد السماسرة نجحنا في الحصول على غرفة بحمّام في حارة جانبية خلف مسجد سيدي بشر. لا يهم كيف ننام ولا كيف نجلس.. المهم أننا تصرفنا وحدنا وأجّرنا - دون مساعدة الكبار - مسكنًا نقضي به الإجازة. كل واحد كان يصحو من النوم على راحته ويخرج وقتما شاء.. هناك من يعبر الكورنيش ويذهب للشاطئ وهناك من يتجول في المنطقة، غير من ينزل لوسط البلد ليتسكع في شارع سعد زغلول وشارع فؤاد. الجو الجميل ومنظر البنات على الشاطئ أو على الكورنيش كان يفتح النفس.. كانت موضة اللبس القصير ما زالت موجودة، ويبدو والله أعلم أن هذه الموضات كانت بطريقة ما تُلزم الشاب بأن يحترم نفسه، وإلا ظن الجميع فيه العته أو سوء الطوية. صحيح أن الاشتياق إلى الفتيات كان موجودًا لكن فكرة إيذاء فتاة أو التحرش بها كانت مستبعدة تمامًا، حيث إنها تجلب لصاحبها احتقار الآخرين كما تحرمه من النظر لنفسه باحترام. كانت المسألة ببساطة هي: كيف ألوم فتاة على ملابسها إذا كانت أمي العفيفة وأختي المحترمة ترتديان الملابس نفسها!

أنا لست أدعو إلى لباس معين أو أستنكر آخر فهذا أمر يخضع للسياق المجتمعي، لكني فقط أحاول رصد الحالة التي عشتها ورأيتها بنفسي.

مضت الأيام لطيفة ما بين البحر ومطعم أبو هاشم ثم الذهاب في المساء إلى واحدة من دور العرض الموجودة بالشارع وتقدم فيلمين في كل بروجرام.. كان يوجد حوالي خمس صالات سينمائية بشارع خالد بن الوليد وبالكورنيش المجاور اختفت جميعها ولم يتبق منها ولا واحدة!

في اليوم الأخير الذي كنا نودع فيه إسكندرية بعد انقضاء الأسبوع سريعًا، رأيتها على الكورنيش.. فتاة مثل النسمة، شعرها ناعم متوسط الطول يتطاير من هواء البحر، جمالها وفستانها الأبيض وهي تلملمه بيديها جعلاني أتسمر في مكاني أرقبها، وأنا أدعو الله ألا يرفع الهواء ثوبها ويكشفها للمارة.. استغربت نفسي. ألا تريد أن تستمتع بحسنها وترى ساقيها؟.. لا.. لا أريد. بعد ثوانٍ أفلت من يدها كيس صغير كانت تمسكه، ومن الواضح أن محاولاتها لملمة الفستان جعلت قبضتها تضعف على الكيس فطار في الهواء. وجدت نفسي أعدو على الرصيف وأرمي نفسي فوقه قبل أن يصل إلى الشارع. قمت أنفض ملابسي ثم توجهت إليها وهي لا تزال على نفس وقفتها. نظرت إلى عينيها فأحسست برغبة في البكاء. قدمت لها الكيس فشكرتني بشدة. خشيت أن أتركها وأمضي فأندم بقية عمري. وقفت أتحدث معها.. كانت في مثل سني، أتت من المنصورة مع أسرتها لقضاء أسبوع بشقة الأسرة في ميامي.

سألتها: هل من سبيل لأراك مرة أخرى. قالت: تعال المنصورة. أعطتني رقم تلفونها ولم يكن عندي تلفون أقدمه لها. قبل أن أتركها قلت لها: سأكتب شعرًا الليلة في عينيك وسآتي إليك في المنصورة لأقدمه لك.

عندما دخلت على الشلة كنت ما زلت مأخوذًا بالقمر الذي تركته منذ قليل.. يا إلهي.. إنني لم أسألها عن اسمها.. كتبت رقم تلفونها على يدي ولم أعرف اسمها.

كنت أجلس على الأرض شاردًا في استرخاء وحولي أفراد الشلة وكل واحد منصرف إلى شأنه، فهناك من يجهز الشنطة ومن يلمع حذاءه ومن يقوم بلمّ الغسيل.. تساءلت مع نفسي: مَن من بينهم أحكي له عن فتاة الكورنيش؟ كنت أحتاج لأن أحكي لأحد ليطمئنني إلى أنني سألقاها من جديد.

قطع تفكيري طرْق على الباب وكان الطارق هو رءوف أحد أفراد الشلة.. دخل علينا وهو يلهث كأنما كان يعدو. قال في لهجة حماسية: أتيت لكم بمفاجأة ستشكروني عليها.

خرج الرد من عندنا في لا مبالاة: طز فيك وفي مفاجآتك.. والحقيقة أننا لم نتوقع منه شيئًا مثيرًا أو ملهمًا لأننا عهدناه كثير الكلام قليل الفعل. وكأنما أحس بالحرج فأراد إثبات أنه أتى بما لم يستطعه الأوائل.. قال: أيها التعساء الخائبون.. لقد خرجت في طلعة قنص وأحضرت لكم من على الكورنيش امرأة!

ران علينا صمت كثيف قطعتُه متسائلًا: ماذا تقصد؟

قال: جلبت لكم مَرَة بشحمها ولحمها.. ألا تريدون أن تجربوا الجنس أيها الصغار؟ لقد تفاهمت مع القواد الذي تعمل معه وقد وافق أن يتركها لنا من الآن للمغرب.

كان رءوف يكبرنا قليلًا في السن لكنه كان سابقًا في التجربة بصورة أوضح، وله في دنيا الغانيات صولات على حسب ما كان يروي لنا.. لقد كنا لا نصدقه ونظنه «ينخع» ولكنه الآن برهن على قدرات لا يمتلكها بقيتنا.

الحقيقة أننا كنا في ذلك الوقت نمتلك براءة تجعلنا لا نرفض التعامل مع المحترفات فقط، لكن لا نتصور الفكرة ابتداءً ولا نستطيع مجرد التفاوض والاتفاق على السعر.. تلك المهارة التي أجادها رءوف الداعر.

شعرنا جميعًا بارتباك لكن مدحت تجاوز المفاجأة سريعًا وقال: ولم لا؟.. فلنجرب.. هذه فرصة قد لا تتاح قريبًا. رد سمير وهو من العقلاء في المجموعة: أي فرصة يا بني آدمين؟.. هذه مومس.. يعني

متاحة لأي أحد يدفع ثمنها. قال رءوف في حنق: كنت أعلم أن بينكم أطفال يخافون من غضب ماما وبينكم شواذ ليس لهم في الصنف.. سأذهب لأنادي البنت والنفر بربع جنيه.. ياللا جهّزوا فلوسكم.
خرج رءوف ونادى قائلًا: يا سامية تعالي.
دخل وبصحبته امرأة منطفئة، في منتصف الثلاثينات من العمر ليس بها أي ملمح للجمال. قالت: مساء الخير يا شباب.. كم عددكم؟.. أخذت تحصينا بينما تسمرنا في أماكننا كأننا نطالع فيلمًا سينمائيًّا ثم قالت: أنتم ثمانية، ليتكم تنظمون أنفسكم بسرعة وكل واحد يجهز فلوسه.
قال رءوف: يتهيأ لي إن دخولي أولًا هو حق ربنا.. أليس كذلك؟
دخل رءوف معها وأغلق باب الحجرة وتكوم بقيتنا في الردهة بجوار الحمام.
قال يوسف: اسمعوا يا جماعة.. من سيرفض الدخول لن يسلم من لسان رءوف وسيكون معيرة المدرسة،ثم أضاف: ومَن يدري.. ربما تكون تجربة لذيذة!
في هذه اللحظات كان إعصار من المشاعر يجتاحني.. ما هذا؟ الله يخرب بيتك يا رءوف.. هل هذا وقته؟.. لقد كنت على وشك أن أحكي عن تجربتي السحرية على الكورنيش مع ذات الرداء الأبيض فإذا بك تحطم خيالي وتدخل وفي يدك مومس.. ماذا أصنع الآن؟.. ليس هذا أبدًا ما تمنيته أو حلمت به.. الوضع كله ُمزرٍ وشديد القذارة.. لو كانت هذه بقرة لما احتملت ثمانية.. لا بد أنها شديدة البؤس لتفعل هذا بنفسها.. لقدً كنت في تلك الفترة أتطلع لمصادقة فتاة حلوة تكون قريبة إلى نفسي ولديها من البراءة ما يشعل خيالي، ويجعلني أسهر أفكر فيها وأكتب لها أشعارًا، وقد كان القدر سخيًّا معي وجعلني ألتقي بها اليوم، فهل يكون الشكر بممارسة الدعارة مع غانية؟.. لقد كنت أتصور فتاتي وأتخيل المرة الأولى التي سألمس فيها يدها فتسري الرعدة في جسدينا، ثم أتطلع لخطف قبلة لو سمحت الظروف.. أما هذه البائسة التي جلبها رءوف فهي أبعد ما تكون عن كل ذلك.. إنني حتى وعلى الرغم من الاشتعال الذي يميز الأولاد في عمرنا والرغبة الجنسية العارمة لم أضع فتاة الأحلام أبدًا ضمن أي تجربة جنسية متخيلة، وربما أن هذا هو السبب في أنني تمنيت ألا تتعرى فتاة الكورنيش.. لقد كنت أراها دائمًا وأنا أفكر في لمسة يد أو ضمّة خفيفة أو قبلة على الطاير.. ما العمل الآن وأي تجربة هذه؟ هل أدخل وآخذ دوري فتظل هذه الذكرى عالقة بنفسي إلى الأبد باعتبارها التجربة الأولى؟.. ما أبأسها من تجربة!.. ولكن ما العمل مع الحيوان رءوف الذي لن يرحم من يتخلف عن الدخول، وقد ينضم إليه آخرون في دعايته السوداء التي يطلقها بحق خصومه.. إنه لا يتورع أبدًا عن وصف من يشتبك معه في المدرسة أو يخاصمه بأنه شاذ جنسيًّا!.. الآن قد تجد هذا الدعاية مصداقية وسط المراهقين المهتاجين عندما يعرفون أن فلانًا كان بين يديه امرأة ورفض أن يضاجعها متعللًا بكلام فارغ.. ياله من موقف!
أخذت أنظر إلى الباقين فرأيت كوكتيلًا من الانفعالات والاستجابات.. البعض جزلًا فرحًا يترقب دوره والبعض متوترًا يهز قدميه ويحرك بؤبؤ عينيه حركات سريعة، لكن من الواضح أن الخوف من الفضيحة على يد رءوف قد أتى أثره، فلم يبق أحد على رفضه للفكرة، ولهذا فإنهم شرعوا بالاستعداد والتسخين، فأخذوا يتدافعون حول الباب لينظروا من ثقب المفتاح ويتابعوا أداء الرفيق الذي بالداخل!.. ولاحظت أن كل واحد لدى خروجه كان إما يرفع إبهامه لأعلى إشارة إلى أن كله تمام أو يرفع السبابة والوسطى معًا علامة على النصر، أو يخرج مهللًا مع إطلاق صيحة مثل (واو) أو ما شابه!

في ذلك الوقت لم يكن الإيدز المميت قد ظهر بعد حتى يمكن الاختباء وراءه كسبب للرفض، وكان أقصى ما يمكن أن يصيب الفتى من ممارسة كهذه هو السيلان، وهذا مقدور عليه بكورس مضاد حيوي يعرفه معظم الشباب!

عجيبة هذه الدنيا.. مَن يرفض القذارة والدنس يشعر بالوحدة والضعف وعدم القدرة على المجاهرة برأيه ومواجهة الأصدقاء. من وقتها فهمت أن تأثير الشلة على الفرد هو تأثير ساحق، لهذا لم أنضم أبدًا طول حياتي إلى أسرة جامعية أو حزب سياسي أو جماعة دينية أو أي تنظيم يقتضي الانصياع إلى ما يريده القطيع أو راعيه!

أخذ الشباب يدخلون واحدًا وراء الآخر، وفي كل مرة تخرج الست سامية فتدخل الحمام وتستعمل الكوز لتغتسل ثم تعود لتتخذ موضعها في السرير في انتظار الزبون التالي.

بعد خروج يوسف مباشرة تقدمت بالدخول لأكون الزبون رقم ستة.. أغلقت الباب ورائي وأحضرت فوطة علقتها بالباب لتسد خرم المفتاح وتمنع الروية، ثم تقدمت من الأخت سامية وكانت عارية كما ولدتها أمها وجلستُ بجوارها على طرف السرير.

بعد قليل تململت المرأة قائلة: وماذا بعد؟ هل ستقضي الوقت تنقل بصرك بيني وبين السقف؟ ثم أضافت: ماذا بك.. هل تريد أم لا تريد؟

أخرجت النقود من جيبي ثم قلت: هاك الورقة أم خمسة وعشرين قرشا لكني لن أفعل شيئًا.. كل ما أريده منك أن نتحدث قليلًا أو نجلس صامتين لمدة عشر دقائق.. هل هذا ممكن؟

مدت يدها فخطفت الورقة قائلة: أحسن.. عملْت طيب، ثم فردت نفسها في السرير وأخذت تتمطى في كسل ثم أسبلت عينيها. أحسستُ أنها ستروح في النوم.. من الواضح أنها مجهدة للغاية.. ترى كم ثمانية غيرنا ناموا معها اليوم والنهار لم ينتصف بعد؟ وكم ثمانية آخرين في انتظارها بعد أن تخرج من عندنا؟ أحسست برغبة في أن أسألها واستنطقها وأفهم منها حكايتها مع الغواية وقصة أول مرة وكيف كان شعورها، وهل سامية هو اسمها الحقيقي.. لكني أفقت من تأملاتي على طرقات على الباب يصيح أصحابها: اخرج يا أستاذ.. هناك غيرك ينتظر.. هل قررت أن تتزوجها؟

نكزتها في قدمها قائلًا: اصحِ يا ست.. ستتسببين لي بمشكلة. انتبهت المرأة المكدودة ففتحت عينيها ولملمت نفسها ثم نزلت من السرير. صحبْتُها حتى الباب وفتحته فاتجهت مباشرة نحو الحمام، بينما خرجتُ أنا للجماعة منفوشًا كديك رومي ومتقمصًا دور الزناتي خليفة، ثم أطلقتُ صيحة تشبه زير الأسد وأشرتُ بعلامة النصر كما رفعت إبهامي لفوق.. كل هذا لأؤكد لأصحابي ولرءوف بالذات أنني لا أقل عنه عهرًا ووساخة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مُسعد كاوتشا

حدث منذ سنوات أنني كنت أسير بشارع حبيب شلبي بالظاهر أتفقد ملاعب الصبا ومكان المدرسة الابتدائية التي كانت لا تزال قابعة بمكانها، عندما قابلت صديق الطفولة «ممدوح» يسير على الجانب الآخر من الشارع.. بدا مهمومًا وكأنما يحمل على كتفيه أثقالًا.
مضيت نحوه ثم أمسكت به وأخذته إلى الرصيف الذي صار مشغولًا بالسيارات مثله مثل الشارع ووقفنا بين سيارتين. كنت أعرف أنه يعمل في أحد البنوك منذ تخرج في كلية التجارة وأنه تزوج إحدى قريباته.
تبادلنا السؤال عن الأخبار وضحكنا بعد أن عدنا لذكريات الأمس عندما كان البال خاليًا والدماغ فاضية وجميلة، لكني مع ذلك أحسست أنه غير سعيد.
قلت له: لا تنكر أنك مشغول الفكر.
نظر بانزعاج: هل الأمر واضح إلى هذا الحد؟
قلت: تحت عينيك هالات سوداء تشي بأنك لا تنام جيدًا.. هل هي مشكلة عائلية، أم تراها معضلة عاطفية من تلك التي كنت تشغلنا بها زمان عن حسناء قابلتها في المترو أو أرملة أصبحت تعتمد عليك في مواساتها أكثر من اللازم؟
اغتصب ضحكة قائلًا: كان زمان يا صاحبي.. مشكلات اليوم لم تعد نسائية وليس بها من الرومانسية أي شيء.. كلها تتعلق بأكل العيش في هذا الزمن الصعب.
سألته: هل أنت في ضائقة مالية؟ قال: ليس الأمر كما تظن.. سأحكي لك الموضوع.
قبل أن يشرع ممدوح في الحكي فوجئنا بصوت عال متهلل أخذ صاحبه يقترب حتى أصبح بجوارنا في وسط الشارع صادحًا بأسمائنا في سعادة صاخبة.
التفتُ لأجد الشيخ مسعد كاوتشا صديقنا ولاعب الكرة القديم، صاحب الشوطة التي كانت تمرق مثل الرصاصة والتي لطالما كسرت زجاج الجيران عندما كنا نلعب في الشارع.
تعثّر مسعد في الدراسة بسبب مخالطته للأشقياء من خارج الحي، وسرعان ما اندمج في دنيا الجريمة وأصبح من الشبّيحة الذين يُعمل لهم حساب.. وبطبيعة الحال فقد دخل السجن أكثر من مرة، وبمرور الوقت بَعُد ما كان يربطنا به فانتمى هو إلى عالم المجرمين وأكملنا نحن سكة التعليم،لكني لم أنس أبدًا أننا كنا نعتمد عليه في أن يعيد لنا الكرة عندما كان يخطفها منا أحمد فوزية وصبيانه من عصابة حارة الفجالة.. لهذا فقد ظل الود القديم عالقًا ولم ينقطع بيننا.
دخل علينا مسعد بالأحضان فرفع كلا منا عاليًا وهو يصرخ بعبارات الترحيب، وكانت هذه طريقته في تحية من يحبهم.
قلت له: لم تتغير يا شيخ كاوتشا.. ما زالت الشقاوة في طبعك.
مسح على لحيته الطويلة المشعثة وقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا ولم نكن لنهتدي لولا أن هدانا الله.
قلت: مهما بسْملتَ وحوْقلتَ فلن تقنعني بأن العربيد الذي داخلك قد انصرف.. لا شك أنك تمارس قدرًا من الرذيلة من وقت لآخر.
كسا وجهه بالجدية وهو يقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا.
نظرت لممدوح قائلًا: هل تعرف أن أمثال هذا الرجل المتدين أشد خطورة ممن لا دين لهم؟

فغر كاوتشا فاه متعجبًا وضحك ممدوح متسائلًا: كيف؟
قلت: بإمكان الشخص المتدين وخاصة إذا كان صادقًا في تدينه أن يؤذيك ويلحق بك أشد الضرر، معتمدًا على عفو الله وغفرانه!
انفجر ممدوح في الضحك، بينما تسمّر مسعد غير فاهم هل ما قيل كان مدحًا أم قدحًا فيه!
اقترب ممدوح منه ثم مد يده وقرصه من بطنه فانتفض مبتعدًا وممدوح يطارده: ما زلت تركب الهوا يا مسعد؟
قال كاوتشا ليتخلص من معابثتنا له: ما رأيكم أن أعزمكم على حمص الشام؟
من المهم في حكاية مسعد كاوتشا أن نعرف أنه في إحدى مرات سجنه حظي برفاق في الغرفة من الجماعات الإسلامية، الذين اعتبروا هدايته تحديًا فقرروا أن يدخلوه. سعى أصحاب اللحى لأن يجعلوه يصلي معهم فرفض.. كرروا معه المحاولات فلما استعصى شرعوا في تأديبه وضربوه ضربًا مبرحًا.. لكن سبحان الله.. بعد فترة نجحوا في تليينه، فأصبح تلميذًا نجيبًا للإخوة الذين رافقوه في السجن، وأعطوه دروسًا حشت مخه وملأته بالأفكار، وجعلت منه عند الخروج من السجن رجلًا جديدًا اسمه: الشيخ مسعد كاوتشا!
ذهبنا إلى عربة «علي» بائع الحمص على ناصية شارع الجميل.. علي هو نفس البائع الشاب الذي كان يقف على باب مدرسة ثمرة التوفيق في الزمانات، لكنه صار شيخًا كبيرًا.
قلت للشيخ مسعد: قبل أن نراك الآن كان ممدوح على وشك أن يبوح لي بأمرٍ يشغله ويفسد عليه حياته، لكن ظهورك أوقف الحكي.
قال ممدوح: خلاص.. لم يعد من داعٍ لأن أشغلكم بهموم فارغة.
وهنا نظر مسعد نحوي في حزن: سأنصرف لتكملا حديثكما.. من الواضح أن ممدوح لا يريد أن يتحدث أمامي.
قال ممدوح: لا والله أبدًا.. خلاص سأحكي حتى لا تأخذك بي الظنون.. الموضوع وما فيه أنني أتعرض لاضطهاد شديد في العمل.. عندي مديرة ملعونة يبدو أنها نذرت حياتها لإيذائي وإساءة معاملتي.. فشلت كل محاولاتي لإقامة علاقة عمل طبيعية معها، ومن الواضح أن الكيمياء بيننا متنافرة، وهي للأسف ليست من النوع المنصف الذي يكره دون أن يظلم، لكنها تكرهني وتمعن في ظلمي، رغم أنني أكاد أكون أكفأ الموجودين بالإدارة.. ومن مظاهر ظلمها لي أنها تتخطاني في الترقيات والحوافز والأهم في المأموريات.. إننا في كل سفرية خارجية نحصل على مبلغ محترم بالدولار، وقد تكفل عداؤها لي بإغلاق هذا الباب في وجهي حتى لم أعد أتقاضى سوى المرتب الأساسي.. لقد باءت كل محاولاتي معها بالفشل، فهي لا تقبل مني أي شيء.
قال ممدوح هذا ونظر إلينا في خجل قبل أن يكمل: هل تصدقاني لو قلت لكما أن علاقتي بزوجتي وطفلتي أصبحت متوترة بسبب الغضب الذي أعاملهما به من تحت راس الزفتة المديرة التي تسمم بدني كل يوم.. لقد أفسدت السافلة عليّ حياتي ولم أعد أعرف ماذا أصنع لردعها!
سألته: وما سبب كل هذا من الأساس؟
قال: هي تحب من ينافقونها، وقد حدث في أول أسبوع لي بالبنك أن دخلت علينا وكنت ومجموعة من المتدربين الجدد منهمكين في التعامل مع العملاء، فهب زملائي واقفين لدى دخولها.. أنا الوحيد الذي ظللت في مكاني وأكملت ما كنت أقوم به.. ويبدو أن هذا قد ترك ندبة في نفسها تؤلمها كلما رأتني، فبدأت معي مبكرًا سكة الاضطهاد التي يبدو ألا نهاية لها.

قلت له مندهشًا: أمرك غريب يا رجل.. ولماذا لا تطلب نقلك لفرع آخر وتبتعد عن حيزبونتك المؤذية؟
قال: عملت المستحيل، لكنها ترفض الموافقة على نقلي، وللأسف كلمتها في الإدارة مسموعة، وقد قالتها لي صراحة: لن أرقيك ولن أنقلك وسوف أتركك تتعفن في مكانك!
أدركت حجم القهر الذي يعاني منه ممدوح ولم أعرف ماذا أقول لأخفف عنه، كما لم تسعفني النصائح في موقف كهذا، لذا فقد قررت بيني وبين نفسي أن أفكر في أمره فيما بعد علني أجد له حلًا قبل أن يجن.
كان الشيخ مسعد يستمع إلى الموضوع في صمت دون أن يتدخل في الحديث، بينما ممدوح يحكي وأنا أستوضحه حينًا وأواسيه حينًا آخر.
عندما فرغنا من الكلام وساد بيننا الصمت قال مسعد: قل لي يا صديقي.. هل مديرتك هذه نصرانية؟
أصابتني الكلمة بصدمة وكان لوقعها على ممدوح نفس التأثير فنظر للشيخ كاوتشا في دهشة: ماذا تقول؟.. نصرانية.. هل تقصد مسيحية؟.. وما علاقة الدين بالموضوع؟.. نعم هي مسيحية لكن لا شأن للدين باضطهادها لي.. يبدو أن عقلك خف يا مسعد وأصبحت نظرتك للعالم تنتمي لزمن الحروب الصليبية.. قال ممدوح هذا وأطلق ضحكة.. ضحكت أنا أيضًا رغم شعوري بالتوتر، لكن مسعد لم يضحك، إنما قال: وهل تظن يا أحمق أن الحروب الصليبية انتهت؟
قلت لمسعد أردعه: اسمع يا أبو العُريف.. إن موضوع الحروب الصليبية هذا يجوز للرد على شخص إرهابي مثل جورج بوش يؤمن بأن حربه ضد أعدائه هي امتداد للحروب الصليبية، ومن الممكن لمن يحاربوه أن يتبنوا نفس أفكاره العنصرية.. إنما فيما يخص خلاف في العمل بين زملاء من وطن واحد فلا يجب أبدًا أن نُدخل البعد الطائفي في الموضوع.. فاهم؟
ضحك كاوتشا في استهانة فعاجله ممدوح: اسمع يا مسعد أنا غلطان أنني تحدثت في وجودك.. لقد زدتني كآبة يا شيخ بتعليقك هذا.. إنني ألعن هذه المرأة لظلمها لي، لكن هذا الظلم ليس وراءه أسباب دينية؛ لأن معظم من يحظون بتدليلها ويحوزون رضاها هم من المسلمين، كما أن هناك زميلة مسيحية مضطهدة تعيش بسببها عصر الشهداء مثلي!
نظر إلينا الشيخ مسعد فيما يشبه الإشفاق وقال: سيأتي عليكما يوم تدركان فيه صدق كلامي.
صرخت في وجهه: أي كلام يا مخبول؟.. ماذا ستكون نصيحتك لو أن المديرة التي تضطهد ممدوح كانت مسلمة؟.. رد الشيخ مسعد: ولكنها ليست مسلمة، لذلك لن أفترض شيئًا غير موجود.
بدأ ممدوح يخرج عن شعوره فقال في ضيق: والآن ماذا تريد؟
رد كاوتشا: أنت الذي تريد يا غلبان ولست أنا!
وقفت صامتًا لا أدري ماذا أقول بعد أن نفد الكلام، ومثلي وقف ممدوح.
ظل الشيخ مسعد ينظر إلينا وعلى وجهه نفس النظرة المشفقة ثم قطع الصمت قائلا: هات لي اسمها وعنوانها وإن شاء الله يصير خير.. قال هذا ثم تركنا للذهول ومضى لحال سبيله.
كانت الظروف الأمنية في هذه الفترة شديدة الصعوبة والجماعات الجهادية في حرب مع الدولة، والأخبار تترى يوميًّا عن عملية هنا وعملية هناك، وعن محلات الذهب التي يتم السطو عليها كغنائم حرب.. لهذا فإن وقع كلام الشيخ كاوتشا كان سيئًا على كلينا، ويبدو أنه زاد في كآبة ممدوح فانصرف ذاهبًا إلى منزله ونسي أن يسلم عليّ.

في هذه الليلة لم أنم من التفكير في المنحدر الذي أخذنا نمضي إليه بهمة في الوطن الذي نوشك أن نفتته.. ما معنى هات لي اسمها وعنوانها وإن شاء الله يصير خير؟ هل ينوي هو وأصدقاؤه أن يقتلوها لمجرد أنها مختلفة في الشغل مع صديقه القديم.. أي جهاد هذا؟

مضت الأيام بعد هذا اللقاء ولم أذهب إلى حيّنا القديم لفترة طويلة حتى كدت أنسى ذلك الموقف برمته.. إلى أن صادفت ممدوح ذات صباح في وسط البلد قريبًا من البنك الذي يعمل به. لاحظت أن الكدر الذي كان عليه في المرة الأخيرة قد زايله.

صافحته وسألته عن الأخبار ثم مازحته: هل أعطيت الشيخ كاوتشا المعلومات التي طلبها عن اسم وعنوان المديرة؟

انفجر ممدوح في الضحك وقال: لن تصدق ما حدث.. لقد مررت بعد لقائنا الأخير بأيام سوداء لدرجة التفكير في الانتحار، بعد أن عصرتني الضائقة المادية وخنقتني المعاملة السيئة التي زادت وأضيف إليها حصار الزملاء، ذلك أن زملاء العمل في بلدنا الميمون ما إن يعرفوا أن المدير لا يحبك حتى يلوّنوا أيامك بلون الويل فلا تجد لنفسك بينهم وليًّا ولا نصيرًا.

قلت: لم أفهم ماذا حدث.

أجاب ممدوح: طبعًا لم أقابل كاوتشا ولم أقدم له المعلومات التي تساعده على دخول الجنة، لكني وبعد سهر ليلة كاملة بلا نوم، توجهت للمكتب في الصباح واليأس يملأ نفسي، وكان شعري مشعثًا وعيناي حمراوين وهيئتي مخيفة.. كتبت طلب نقل ثم دخلت على المديرة وكانت قد حضرت باكرًا مثلي، ثم أغلقت الباب وجلست أمامها. قدمت طلب النقل ثم بمنتهى الهدوء حكيت لها باختصار ما دار مع مسعد كاوتشا، وقلت لها إن الرجل ينتظر اسمك وعنوانك حتى يقوم بعمل يتقرب به إلى الله!

وضعت يدي على فمي من الدهشة، فأكمل ممدوح: إن دهشتها كانت أشد من دهشتك، لكني لم أترك لها الفرصة للتفكير وإنما قلت: يمكنك أن تتشككي في كلامي ويمكنك أن تطلبي لي البوليس وبوسعك أن تستهيني بالأمر كله، لكن ليس عندي سوى قول واحد: إذا لم تصدقيني ما عليك سوى أن تهملي طلب النقل هذا وسوف يجيئك الرد عمليًّا.

سألته: وبعدين؟

قال متهللًا: بعد يومين صدر قرار نقلي وابتعدت عنها وعادت إليّ حياتي من جديد!

من الجدير بالحكي أن الشيخ مسعد كاوتشا قد لقي حتفه في اشتباك مع الأمن منذ سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبلة جمالات

في المرة الأولى التي رأيتها فيها لم أتمالك نفسي من الضحك. كان المشهد غاية في الغرابة.. صبي يقود عربة تريسيكل وفي داخل الصندوق تقبع امرأة كانت تشرئب بعنقها تتطلع إلى الطريق.
كنا قد انتقلنا للسكنى بهذا الشارع حديثًا، ورغم أنه كان في نطاق نفس حي الظاهر الذي نشأت به فقد كان إحساسي به غريبًا. سألت عن الولية راكبة التريسيكل فأفهمني ذوو الأقدمية أن هذا المنظر عاديًّا وأن راكبة التريسيكل هي أشهر امرأة بالمنطقة. عندما استفسرت عمن تكون قالوا لي: إنها جمالات القرد!
هتفت مفزوعًا: جمالات مين؟
أجابوا جمالات القرد.. هي بالأساس دلّالة تبيع الملابس بالتقسيط، كما تتاجر أيضًا في الحلويات وخاصة العسلية، وتستخدم التريسيكل في نقل البضاعة، واعتادت أن تضع نفسها داخله ثم تملي على السائق التلميذ خط السير.
قلت: لا بأس.. أكل العيش أصبح يحتاج لشغل القرود فعلا.
قالوا: نعم ولكن البأس كل البأس في أن الست جمالات هي في الوقت نفسه ناظرة المدرسة الابتدائية المجاورة!
وقتها لم أصدق هذا الكلام وظننت أنهم يهزلون.. كيف يمكن أن تكون ناظرة مدرسة ودلالة في الوقت نفسه؟ وكيف تتخذ من المدرسة مسرحًا لتجارتها العجيبة، وكيف تستغل التلاميذ في عملية البيع؟.. ألا يوجد رؤساء ومفتشون؟ وهل هذه المدرسة تتبع الإدارة التعليمية لوالد الست جمالات.. الأستاذ القرد؟ وبالمناسبة هل هذا هو اسمها الحقيقي؟
ضحك القوم وأخبروني بأن هذا هو اسم الشهرة الذي أطلقه عليها زبائنها الذين ربطوا بين سحنتها وبين القرَدة العليا، واقتنعوا أن نظرية النشوء والارتقاء لداروين قد تعطلت في مرحلتها قبل الأخيرة فيما يخص الست جمالات.. أما عن المفتشين والرؤساء فمن الذي يستطيع أن يتصدى لها، وهي أمينة المرأة عن المنطقة منذ أيام الاتحاد القومي مرورًا بالاتحاد الاشتراكي وحزب مصر حتى الحزب الوطني، وهي أيضًا صديقة للقيادات وأصحاب النفوذ، وتستطيع أن تنفي أكبر شنب يفكر في التصدي لها واعتراض قوافل تجارتها أو لمس التريسيكل!
وبمناسبة التريسيكل.. فقد سألت العارفين: ألا تستطيع بكل ما تحصده من مال أن تركب سيارة مثل البني آدمين؟
أخبروني أنها تملك سيارة فاخرة وعندها عدة تاكسيات تجوب شوارع المدينة، لكنها لا تجد راحتها إلا على التريسيكل!
في ذلك الوقت كانت هذه المسألة أكبر من قدرتي على الفهم أو البلع.. لكن بعد ذلك مضى بي الزمن حتى رأيت معمر القذافي يصل إلى إحدى الساحات لإلقاء خطاب أمام الجماهير، وقد أتى إلى الساحة على متن توك توك، ففقدت دهشتي مما كانت تفعله جمالات زمان!
ومن الممكن ألا يستوعب الناس بسهولة أن ناظرة مدرسة كانت تشتغل بالدلالة وبيع كل ما يخطر على البال ولكنها الحقيقة.. بل بلغ بها الكُفر أنها كانت تستخدم المدرسين والتلاميذ في الترويج لبضاعتها، ويا ويل من يفكر أن يعارضها أو يمتنع عن التعاون.. إذا كان المعترض مدرسًا كانت

تتكفل بنقله إلى السلوم، وإذا كان تلميذا فإنها كانت تفصله بلا رحمة. لكل هذا عجز الجميع عن ردعها.
والغريب أن العجز عن إيقافها والتصدي لها قد أحدث حالة عكسية في النفوس، إذ أصبح الجميع يتماهى معها ويعمل في خدمتها ويتظاهر بحبه لها، حتى لا يضطر للاعتراف لنفسه بأنه كلب!
والغريب أن النسوة من سكان الحي كن ينظرن لها نظرة طبيعية لا يشوبها العجب أو الدهشة، إذ كنّ في معظمهن من زبائنها اللواتي يأخذن منها البيجامات وقمصان النوم والأقمشة بالتقسيط المريح، وكانت جمالات تمر على البيوت أول كل شهر لتحصيل الغلة.
لهذا كان المنظر مألوفًا تمامًا.. منظرها وهي تذهب إلى المدرسة في الصباح راكبة عربة التريسيكل، ويقبع بالعربة إلى جانبها أنواع شتى من البضاعة كأصابع العسلية وأكياس الشيبسي وعلب العصير مجهولة المصدر تبيعها لحسابها في المدرسة، والأغرب من هذا أنها كانت تستعين بأحد السعاة في المدرسة ليقلي الطعمية والبطاطس اللازمة لعمل السندوتشات التي كانت تبيعها في الفسحة للتلاميذ!
والعجيب أن أحد الأساتذة كان يتولى إمساك دفاتر حسابات أبلة جمالات ومتابعة المخزون والمنصرف، ولم تكن تتردد في عمل جرد مفاجئ عليه بين وقت وآخر!
وعلى الرغم من أن سيرة الست جمالات كانت باعثة على الضحك بالنسبة لي من فرط غرابتها، فإنها كانت تثير الأسى على حال الناس واستسلامهم لهذا النوع العبثي من الحياة، والتعامل مع ناظرة تقلي طعمية باعتبار الأمر طبيعيًّا.
ومن المنطقي والحال هكذا أن الست الناظرة كانت تفرض إتاوات شهرية على المدرسين، مقابل سماحها لهم بإعطاء الدروس الخصوصية ومجموعات التقوية، ولم تكن تمنح إعفاء للمدرسين الذين لا يريدون إعطاء دروس، وقد أرغمت قسوتها الجميع على التوحش مع التلاميذ من أجل جمع الشهرية لها!
لم تكن كذلك ترق أو تلين لأي مصاب طارئ يلم بأحد المدرسين، والكل يذكر كيف أرغمت مدرسًا كُسرت ساقه على الحضور للمدرسة يوميًّا، ورفضت منحه إجازة حتى يفصل القومسيون الطبي في أمره، مما جعل زملاءه يحملونه يوميًّا إلى المدرسة، والأغرب أنها تقاضت منه الإتاوة الشهرية عن نفس الشهر الذي قضاه في الجبس ولم ترحم دموعه وتوسلاته!
كان معروفًا عن أبلة جمالات أنه لم يسبق لها الزواج، ومن ذا الذي يتزوج القرد؟ وقيل إنها حاولت في شبابها أن تستميل بعض الرجال للظفر بأحدهم كعريس، لكنهم احتملوا الاضطهاد على الذهاب لعش الزوجية معها.. بعد ذلك كفت عن المحاولة ولم تقبل أن تهين نفسها، لكن فضلت أن تستمتع بإهانة الرجال وكسر إرادتهم.
لكل ذلك فإنه كان حدثًا هائلًا مهولًا أن نعرف أن جمالات قد تزوجت.. تزوجت من؟ تزوجت منصور البلطجي الذي كان يخدم معها في الحزب، ويساعد في تزوير الانتخابات وتشويه وجه من يتصدى لحماية الصندوق.
كان الخبر مفاجئًا خاصة وأن منصور صاحب السوابق كان متزوجًا وعنده شبّيحة شباب من صُلبه، لكن الناس على أي حال شكروا لمنصور إقدامه على ما لم يجرؤ عليه غيره، وتمنوا أن يتمكن من ترويض الوحش!
ما زلت حتى اليوم أحتفظ بنسخة من جريدة الأخبار التي حملت خبر مقتل منصور البلطجي على يد زوجته جمالات.. وفي الخبر تفاصيل عن اختفاء منصور لفترة أقلقت عليه أولاده الذين استعانوا

برجال المباحث، وهؤلاء نبشوا في الأمر حتى عرفوا أن ست الناظرة قتلت زوجها وقطعت أجزاءه ثم عبأتها في أكياس، وكانت هذه الحادثة من أوائل ما عُرف بجرائم تقطيع الأزواج ووضع أجزائهم في أكياس الزبالة.

وهناك تفسير غريب لهذا النوع من الجرائم الذي لم يكن يحدث قديمًا، عندما كانت الزبالة توضع في صفيحة خارج الشقة ثم يأتي الزبال ليفرغها كل يوم.. ويبدو أن اختراع الأكياس السوداء الكبيرة كان محفزًا لعدد من النساء على محاولة ارتكاب الجريمة الكاملة.

وقد جاء في بقية الخبر أن منصور دأب على سحب المال من زوجته باللين في البداية ثم بالقوة بعد أن امتنعت عن إعطائه ما يريد، وأنه كان يضربها ويأخذ الفلوس بالإكراه.

قال الخبر كذلك إن منصور كان يدعو أصدقاءه من الأشقياء للسهر عنده في شقة جمالات، وأنه كان يرغمها على خدمة أصدقائه وتحضير ما يلزمهم من طعام أثناء سهرات الخمر والحشيش، وقد بلغ من جبروته أنه كان يرفض أن تقوم خادمة المنزل بالسهر عليه وأصدقائه أثناء جلسات المزاج، وكان يصر على أن تخدمه جمالات بنفسها. كان من الواضح أن منصور قد كسر حاجز الرهبة منها بعد أن اعتلاها واستمتع بضعفها، ولعله أراد أن يثأر من أيام كانت فيها تتخذه خادمًا مثل غيره من الشغيلة!

وقيل إن جمالات حاولت استئجار من يقوم بمهمة قتل زوجها، لكن أحدًا لم يقبل مجرد التفكير في قتل منصور الرهيب، لذلك لم يكن أمامها سوى أن تقوم بالعملية بنفسها فاصطحبته في رحلة إلى الإسكندرية وهناك قامت بذبحه وهو في غيبوبة سُكْر ثم قطّعته ونثرت أجزاءه في أحياء المدينة.

انقطعت أخبار جمالات بعد دخولها السجن ولم أعرف إذا كانت قد خرجت أم لقيت ربها أثناء قضاء العقوبة، ولم أعرف كذلك مصير التريسيكل الذي كانت تركبه وتضع فيه البضاعة مثل توك توك القذافي الذي لا نعرف مصيره أيضًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مخالي.. صاحب البرميل

اسمه مخالي، لكنه ليس يونانيًّا كما يوحي الاسم، بل هو من الصعيد، وقد قدم إلى القاهرة طفلًا بصحبة والده وعمل معه حمالًا بسوق الخضار. كان مخالي طموحًا فوضع القرش على القرش حتى نجح في استئجار محل بالظاهر لبيع البقالة.

عرفتُ مخالي البقال منذ الصغر وكان محله على ناصية شارعنا، ولكن معرفته جاءت مرتبطة بتحذير من الشراء منه أو التعامل معه!.. غريبة هذه المعرفة التي تأتي مصحوبة بعدم جواز الشراء من بقال معين.

لم يكن المنع بسبب أنه أجنبي كما قد يوحي اسمه ولا بسبب أنه مسيحي، لكن حاجزًا كان يقف بين سكان الحي ودكان مخالي.

كانت المنطقة تحفل بالكثير من محلات البقالة ولكلٍ رزقه بما فيهم مخالي نفسه الذي كان يتعرض لمقاطعة شرسة، وكانت قدرة مخالي في التغلب على عزوف الناس عنه نابعة أساسًا من سبب المقاطعة!

لم يكن زبائن مخالي في غالبيتهم يشترون الجبن والحلاوة أو رابسو وتايد، كما لم يكونوا يبتاعون الأرز والمكرونة والسكر والشاي، وإنما كان جل زبائنه من نوعية أخرى هم رجال الحي أصحاب المزاج، الذين لا يطيب للرجل منهم أن يعود إلى بيته في المساء قبل أن يعرج على دكان مخالي ليأخذ كأسًا أو اثنتين مما يحويه برميل مخالي الشهير.

هذا هو السبب إذن في هروب الناس من بقالة الأخ مخالي.. الرجل يبيع الخمر ودكانه تحتضن السكارى الذين يسهرون ويصخبون داخل المحل الصغير حتى أذان الفجر.. وكان تصريف البضاعة من جبن وخبز وصابون وسمن وخلافه يتم عن طريق زبائنه السكارى، الذين كانوا يحملون البضاعة بعد نهاية السهرة ثم يواجهون زوجاتهم الغاضبات بسبب الزوج السكران والبقالة الملعونة!

كان مألوفًا أن تجد امرأة تنزل بعد منتصف الليل وتقف على باب الدكان لتنادي زوجها حتى يخرج ويعود معها للبيت، أو أن ترسل الأم ابنها ليهمس في أذن أبيه بأنّ: ماما تنتظرك فهيا قم حالًا!

ولم يكن غريبًا أن تنشب مشاجرة بين الرجل وأهل بيته؛ لأنه لا يريد أن يعود قبل أن يأخذ كأسًا أخيرة.

العجيب أن السكان كانوا يسمّون ما يبيعه الرجل في البرميل «منقوع براطيش»، والأعجب أن الزبون كان إذا طلب براندي ملأ له كوبًا من البرميل، وإذا طلب روم ملأ له كوبًا من البرميل، وإذا طلب زبيب ملأ له كوبًا من البرميل.. كان يترك البرميل فقط في حالة طلب الزبون لزجاجة بيرة ستيلا.

في المدرسة كانت تنشب المشاجرات بين التلاميذ؛ لأن بعضهم يروي للفصل عن أب فلان زميلهم الذي حملوه بالأمس مُتعتعًا من دكان مخالي إلى البيت، وهو في حالة ضياع بحيث لم يقو على الذهاب للبيت بمفرده، أو يروي بعضهم عن خناقة نص الليل التي نشبت لأن أم فلان شتمت أبو فلان، الذي تركها بدون مصروف وذهب ليسكر بالفلوس عند مخالي.

كل هذا كنت أسمعه وأشاهده في الطفولة، لذلك فقد وقر في ذهني أن عالم مخالي هو عالم ساحر مليء بالأسرار، وكانت تستهويني خناقات الجيران وما يحدثه مخالي من مشاكل في البيوت لأنها

تملأ الحياة الرتيبة بالأكشن!
أحببت أيضًا غناء الرجال في الليل وسمرهم ونكاتهم البذيئة وهم يشربون من البرميل، وكنت أستغل كل فرصة للنزول لقضاء احتياجات البيت، حتى أمر بجوار دكان مخالي لأسترق النظر والسمع إلى رجال الحي، ومعظمهم آباء أصدقائي وزملائي بالمدرسة، ومن بينهم الأستاذ صالح الموظف بوزارة الأوقاف، وكنا نسمعه عندما يشف ويستخفه الطرب يرفع عقيرته بأداء أغاني عبد الوهاب ومنها «رأيت خياله»، التي كان يعيد ويزيد ويقسّم فيها وسط استحسان رفاقه من ندماء الشراب. كانت تدهشني الحالة الانبساطية التي كنت أرى عليها رجالًا بشنبات لا تجرؤ على الاقتراب منهم في الصباح!
لم يكن الخمر فقط هو سبب ابتعاد الناس عن الشراء من مخالي، فهذه الحالة السلفية لم تكن شديدة الحدة وقتها، وقد كان الناس على أي حال يقبلون على الشراء من وليم البقال في الشارع الخلفي، وكان يبيع زجاجات الخمر أيضًا لكن لا يقدمها بالدكان.
لم تكن المشاكل التي يسببها مخالي في البيوت بين الرجل وأهله هي السبب الوحيد لنبذه، وإنما لأن الرجل كان شديد القذارة، لا يتوقف عن البصق والتمخط طوال الوقت.. الله يخرب بيته.. ما زلت أشعر بالقرف كلما تذكرته.. كان ماكينة بصاق ومخاط متحركة.
كان يقف خلف الكاونتر في الدكان ويطلق البصقة فتنزل حسب التساهيل.. مرة تسقط على قفص العيش الذي يضعه بالخارج، ومرة تسقط على مشنّة الجرجير، وأخرى على طبق الترمس أو صفيحة المخلل التي يقدم منها المَزة لزبائنه في الليل.
كنت وما زلت أندهش من المزاج الذي يعطل حواس الإنسان ويجعله لا يقرف من الشرب عند واحد كمخالي، أو لا يفزع من تداول الجوزة مع رفاق تفوح من أفواههم رائحة العفن!
كان من الشائع في صباح يوم الجمعة أن أجد بعض أصدقائي وقد حمل الواحد منهم عدة زجاجات من البيرة، وذهب ليعيدها لمخالي بعد أن شربها الأب الليلة السابقة في المنزل بموافقة الأم التي رفضت أن تترك رجلها لمخالي ليلة الجمعة!
ومن العجيب أننا كنا نتذوق آخر قطرتين موجودتين بكل زجاجة لنعرف بماذا يحس هؤلاء الرجال عندما يشربون، وكان يروعنا في كل مرة المذاق المر للبيرة، ولا أنسى علقة ساخنة نلتها عندما شاهدني والدي أفعل هذا، وكان منطقه: إن أباك لا يفعلها وأنت الذي تشرب؟.. ورغم أن أبي لم يكن يقرب الخمر فإن سكّيرة الحي كانوا أصدقاءه، وقد سمعته ينهي أمي عن الدعاء عليهم عندما كانت مشاجراتهم تصل إلينا.. كان يقول لها: اطلبي لهم الهداية لا الحرق.. مَن يعلم الظروف التي تضطرهم لهذا؟.. ورغم أنني عانيت من شدته في الطفولة، فلا يسعني سوى الاعتراف له بقدرة كبيرة على التسامح مع الضعف البشري والحنو على الجنوح.
وعلى الرغم من إعجابي بعالم مخالي في الطفولة، فقد كنت أشعر بالأسى لأبنائه الذين كانوا معنا في المدرسة، فلم يكونوا يسلمون من الإهانات اللفظية للزملاء، خاصة الإفيه الذي أطلقه طفل سافل من أصحابنا على مخالي وهو أن بصقته هي التي «زحلقت» الترام الذي انزلق على القضبان ذات مرة ومضى يحفر الأسفلت.
سُقيًا لأيام ترام ١٧ الذي كان يمر بجوار دكان مخالي، وعذرًا للركاب الذين كثيرًا ما نالتهم بصقاته بعيدة المدى دون ذنب جنوه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

رمضان والحسناء

كنا تلامذة حقًّا لكن الخيط الذي كان يفصلنا عن دنيا الصيّع والشبيحة كان رفيعًا، ولذلك كان ما أسهل أن تعرف أن واحدًا من فصلنا قد دخل السجن، أو تعرض لضربة مطواة شقت وجهه، أو تلقى علقة موت من خصوم عجنوه وتركوه على الرصيف ينزف.

كان التحدي والرغبة في الانغماس في أوساط عالم الفتونة من سمات المرحلة، حتى لو كان الواحد منا غير مؤهل للولوج والتفوق في ساحات الوغى سواء بحكم أنه ابن ناس أو بسبب بنيته الجسمانية التي ترشحه ليكون من المضروبين فقط!

ولم يكن غريبًا أن تجد معظم تلاميذ فصلنا يحملون مطاوي في طيات ملابسهم، ليس بغرض استعمالها ولكن حتى لا يحسوا بالنقص أو الشذوذ عمن سواهم، وهذا مهم جدًّا في فهم ذهنية المراهقين من تلامذة الثانوي.

لكن إلى جانب العيال العادية التي تحاول الانتساب للشقاوة من باب المنظرة، كان يوجد في فصلنا مجرمون حقيقيون، لصوص يقومون بعمليات سرقة للشقق بزعامة حسنين الحرامي، ومروجو مخدرات بزعامة الورداني، وكنت أجد في الجلوس مع هؤلاء متعة حقيقية للاستماع إلى قصص جرائم قاموا بها ولم تصل إليهم يد القانون!

الغريب أن المدرسين كانوا يعرفون المجرمين بالاسم، لكن لم يكن أحد يجرؤ على مواجهتهم أو معاقبتهم ولو حتى على الغياب!

كنت قريبًا من المجرمين وربطتني بهم ألفة ومودة دون أن أكون واحدًا منهم. كذلك كنت قريبًا من العيال الطيبين الذين لا يهشون ولا ينشون ويهدفون فقط من الحضور للمدرسة إلى التعلم والشهادة، ومع ذلك لم أعتبر نفسي واحدًا منهم.. والظاهر أنني كنت أقرب ما أكون على حد قول صديق وصفني بأنني «قسيس القرية»، الذي يستمع إلى الجميع ويريح الجميع ولا يوجه إدانات لأحد!

كان الخروج من المدرسة ميسورًا بالنط من على سور ملعب الكرة، وبعد خطوات يكون الجلوس على القهوة في ميدان الجيش، لذلك فإن هذه القهوة كان يمكن اعتبارها بصورة أو أخرى فرعًا للمدرسة، حتى أن الناظر كان يستدعي التلامذة من هناك ويرسل مدرس الألعاب لإحضارهم من وقت لآخر.

كان بالقهوة شطرنج وطاولة وكوتشينة وكنت أشارك في الشطرنج الصامت وفي الطاولة المرحة، وكذلك في الكوتشينة التي يعلو فيها الصوت بالسباب.. وها هو رمضان صاحبنا يُقبل فنترك ما في يدنا ونهرع إليه في استقبال يليق بالأبطال.. كانت المرة الأولى التي يأتي فيها بعد أن تعرض للطعن بالسكين في وجهه من أحد أشقياء الحسينية.

كان رمضان قد تعرف على فتاة من مدرسة التجارة المجاورة، وكان يسير بها جيئة وذهابًا أمام المدرسة وحول القهوة؛ ليجعلنا نراها ونتمعن في ملامحها الحلوة وجسمها الرشيق، حتى يفري قلوب خصومه من الشباب الذين كانت فتياتهم أقل حُسنًا، أو الذين لم يكن في معيتهم بنات على الإطلاق!

والحقيقة أن مسألة الحصول على فتاة يصاحبها التلميذ منا كانت صعبة للغاية، قبل أن تتعطف الوزارة وتحيل مدرسة الصنايع المجاورة إلى ثانوي تجاري بنات.. بعد ذلك تُركت المسألة للتفاعل الحر، فحظي معظمنا برفيقة ولكن ذلك لم يحل المسألة، إذ إن الطمع في صاحبة الزميل كان شائعًا..

لم يكن أحد قانعًا بما في يده، وقد عزا معظم الذين أبطرتهم النعمة ورغبوا في التغيير الأمر إلى العجلة التي انتابتهم بعد فتح مدرسة البنات.. وقد كانت هذه العجلة سببًا في أن الواحد منهم لم يتأن في الاختيار، وإنما اندفع إلى مصاحبة أول من رضيت أن ترد عليه!

والحق أن هالة صاحبة رمضان كانت فاتنة، ورمضان نفسه كان وسيمًا خصوصًا في الأيام التي يحلق فيها ذقنه النابت. وقد نشبت مشاجرات كثيرة نتيجة محاولة بعض الأنذال مشاغلة هالة من وراء ظهر رمضان، وكان هذا يستشيط غضبًا عندما تصله أخبار تلك المحاولات، ولم يكن يتردد في الشجار العنيف من أجل فتاته الحلوة.

ويبدو أن أحد الزملاء قد تلقى علقة من رمضان بعدما تعدى على حرمه، الأمر الذي أحفظه وملأ قلبه بالغل، فأخذ يبحث حتى استدل على أهل هالة الذين كانوا يسكنون بالحسينية، وعرف أن أخاها الأكبر هو شوقي الإسترليني تاجر العملة المعروف، فذهب إليه حيث يجلس في المساء على قهوة «طوطح» وأخبره أن أخته تمشي مع رمضان.. والباقي يمكن تصوره دون أن نحكيه، والعشر غرز في الجهة اليسرى من وجه رمضان تدل على الطريقة التي تعامل بها الإسترليني مع الفتى الذي يمشي مع أخته.

أقبل رمضان على القهوة فتلقفناه بالترحاب اللائق بأحد المعلمين، والحقيقة أننا في تلك الفترة كنا نحب مصادقة أولاد الليل لكن دون أن ندفع الثمن، وها هو واحد منا قد حصل على ختم الفتونة بعد أن أخذ بِشلة واضحة في الوجه.

حكى لنا رمضان عن تفاصيل الموقعة التي جرت بعد أن خرج من مجموعة الإنجليزي التي كان يأخذها في العباسية عند الأستاذ هاشم، فوجد شقيق هالة ومعه رهط من الشبيحة في انتظاره.. قال رمضان إنه أصاب ثلاثة منهم قبل أن تشق المطواة وجهه ويرى الدم، فيجري مندفعًا نحو مستوصف قريب في الوايلية قاده إليه أولاد الحلال حيث أجروا له جراحة سريعة.

كان رمضان في الأصل تلميذًا عاديًّا من أسرة متوسطة من تلك الأسر التي تطلب الستر وتعليم الأبناء، ولم يكن من العُصبجية أو أولاد الليل، لكن يبدو أن ضربة المطواة التي شقت وجهه قد لامست روحه فجرحتها، ولم يعد بعدها هو نفس الشخص الموعود بالحب والغرام، لكن أصبح يجالس اللصوص والفتوات بعد أن تم تعميده بالدم وأصبح لائقًا لعالم الجريمة الذي يحتويهم.

كان أهل رمضان يسعون في علاجه عند طبيب تجميل يداري الشق الطولي في وجهه، حتى يتجاوز المحنة ويعود نفس الشاب الوسيم من جديد، بينما كان هو يسعى للانتقام من شوقي الإسترليني.. وبطبيعة الحال لم يكن مجديًا أن يبحث في شلتنا عمن يمكن أن يساعده لتحقيق انتقامه، فحتى المتهورين منا كان الأمر بالنسبة لهم لا يعدو «فنجرة حنك» مع الهروب السريع وقت المعارك الحقيقية!

لكن يبدو أن رمضان وجد بغيته في لصوص الفصل الذين تقرب إليهم حديثًا وصار يجلس معهم أكثر مما يجلس معنا.. لكن هل تراهم يساعدونه بالمجان دون ثمن، أم يكون الثمن إلحاقه رسميًّا بعصابتهم؟

تطور الأمر على نحو درامي في الأيام التالية عندما عرفنا أن رمضان قد شارك في عملية سرقة شقة بالجمالية، كان حسنين الحرامي يخطط لها منذ مدة. لقد عرف حسنين أن صاحب الشقة قد غادر مع زوجته لعمل عُمرة بالسعودية، وكان جارًا للتاجر صاحب الشقة فرسم لهم الخريطة وذهبوا في الليل

وتسللوا من على المواسير، ودخلوا ومعهم رمضان فقاموا بحمل ما استطاعوا وفروا تحت جنح الظلام.
شاع الخبر بعد أن تم القبض على حسنين ومعه بعض أفراد العصابة واعترفوا بكل التفاصيل، ومن بعدها اختفى رمضان فلم يعد قادرًا على الحضور إلى المدرسة أو الذهاب للبيت، وانقطعت أخباره لفترة.
كان خبر مشاركة رمضان في عملية سرقة جنونيًّا، لأن رمضان كان مثلنا، واحدًا منا ولم يكن مثل حسنين أو الورداني، فكيف قطع هذا الطريق وتنكّر للمستقبل الذي كان ينتظره؟
في ذلك الوقت كنت أرى هالة وهي تسير بدلال في الشارع محتضنة شنطة الكتب، وكنت أسائل نفسي: هل يا ترى تعرف أن تعلق رمضان بها قد غير مسار حياته، وجعله وقد كان بينه وبين الجامعة شهورًا قليلة فارًا من العدالة ينتظره مصير أسود؟.. لم أكن أحمّلها مسئولية ما حدث لكني كنت أراها تفاحة شهية مَن فكر في تذوقها تعيّن عليه دفع الثمن.
كم واحد منا كان يحسد رمضان على وسامته وعلى حظه السعيد في مصاحبة أجمل بنات الحي؟ هل يشعر به أحد الآن وهو مختبئ في عشة فراخ، أو في عربة قطار قديم، أو في قبو تحت الأرض؟ لقد سعى للانتقام وقام بالعملية مع اللصوص على أمل أن يساعدوه في الثأر ممن ضربه بالمطواة ففشلت العملية وها هو مطارد بلا نصير.
لم أكن أعرف كيف كان رمضان يفكر في ذلك الوقت.. لقد كان بإمكانه إذا توقف عند هذا الحد وسلم نفسه، أن ينال عقابًا مخففًا لحداثة سنه ولأنها أول مرة، وكان بوسعه إن يعود إلى المسار القديم من أول وجديد.. لكن يبدو أن النفس البشرية ليست سهلة على هذا النحو، كما يبدو أن نوازع الانتقام إذا أنشبت أظافرها في روح إنسان فإنها لا تخرج إلا بالدم!
من الواضح أن رمضان كان يخرج من مخبئه متخفيًا ويتابع من بعيد مسار شوقي الإسترليني شقيق هالة الذي شق وجهه، لهذا فقد عرفنا أنه تربص له وكمن في انتظاره حتى اتخذ مقعدًا خارجيًّا بالقهوة وجلس وسط أقرانه يدخن الشيشة.
اقترب منه رمضان وهو يحمل صفيحة جاز ثم لم يتردد في سكبها فوق رأسه فأغرقت الرجل وطالت الجالسين إلى جواره، ثم أخرج رمضان ولاعته في لمح البصر وأشعل فيهم النيران.
حدث هذا بسرعة ألجمت الجميع وجعلتهم يتسمرون في أماكنهم.
الذين شهدوا الواقعة قالوا إن شوقي بينما يتخبط والنار ممسكة به، قام بإلقاء نفسه على رمضان في فزع وقام باحتضانه ورقص معه في الشارع رقصة الموت!
كانت حادثة مأساوية ظلت حديث الحي لفترة طويلة وراح ضحيتها رمضان وغريمه الإسترليني ولم تفلح محاولات إسعافهما، وقد نجا اثنان من رفاق شوقي من الموت بعد أن لحقت بهما تشوهات دائمة.
دائمًا ما تثير ذكرى رمضان في نفسي انفعالات شتى؛ لأني أشعر أننا في تلك الفترة كنا كلنا معرضون لنفس المصير أو لمصير مشابه، وكان دخول السجن أقرب إلينا من دخول الجامعة لولا ستر ربنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

جمعة.. ملك البيزنس

منذ شاهدت سعاد حسني بالتلفزيون في الصغر صرت ممسوسًا بها، ثم أصبحت زبونًا دائمًا لدور العرض التي تعرض أفلامها. كنت على أعتاب المرحلة الإعدادية عندما بدأت بمشاهدة فيلم «غروب وشروق» في سينما بارك بميدان السكاكيني، ثم شاهدت «الحب الضائع» بسينما ريالتو بالظاهر، وفيلم «الخوف» بسينما مصر بشارع الجيش، وبعده جاء فيلم «زوزو» الذي انتظرته كثيرًا حتى انتهى عرضه من سينما أوبرا، وجاء يتهادى إلى سينمات الدرجة الثالثة حيث شاهدته بسينما سهير في العباسية، وفي الوقت نفسه عُرض لها فيلم آخر سيئ الحظ لا أظن الكثيرين سمعوا به وهو فيلم «غرباء» من إخراج سعد عرفة، ولقد أحببت هذا الفيلم إلى جانب «على من نطلق الرصاص» أكثر من غيرهما، رغم أنهما لم يكونا الأكثر شهرة.

عندما ظهرت إعلانات فيلم «أميرة حبي أنا» وملأت أفيشاته الشوارع شعرت بتوتر، مصدره عدم القدرة على الانتظار لمدة سنة كاملة حتى ينتهي عرضه من سينما الدرجة الأولى ثم يهبط إلينا في سينما الأحياء.

كانت سينما الحي هي أجمل مظهر للمدنية أحببته في حياتي.. في حينا وحده (الظاهر) كان يوجد أكثر من عشرة دور عرض سينمائي، وقد حدثني الأقدمون أن العدد كان أكثر من ذلك في السابق. كانت تجاورنا بشارع الظاهر سينمات ريالتو الشتوي وريالتو الصيفي وفاليري وماجيستك، غير سينما فيكتوريا بشارع بورسعيد وبارك بالسكاكيني والتاج بشارع أحمد سعيد ومصر وهوليود بشارع الجيش.

لم أستطع الانتظار ووجدت نفسي أقوم بالادخار من المصروف حتى جمعت قيمة التذكرة، وتوجهت إلى سينما راديو التي كانت تعرض الفيلم، وقفت بالطابور ودفعت ستة عشر قرشًا ونصف ثمن التذكرة.

بالصدفة لمحت «جمعة» زميلي بالمدرسة يقف بالممر الذي تقع به السينما لشراء الآيس كريم في انتظار الدخول مثلي. شاغبته متسائلًا: من أين لك بثمن تذكرة السينما وأنت البائس المعدم؟ إن عهدي بك زبونًا وفيًّا لسينما هوليود التي يرتادها اللصوص والشواذ!

قال: عمي الذي في البرازيل مات وترك لنا مزارع بُن تجري فيها الخيل!

كان جمعة من أشقياء الفصل الذين يشاركون في كل نشاط أسود.. لعب قمار، ارتياد بيوت دعارة، خطف شنط سيدات، وقد عرفت منه أنه حصل على ثمن التذكرة من حصيلة لعب الثلاث ورقات داخل حديقة الأزبكية.

وقفت معه نتحدث ريثما يقومون بتجهيز صالة العرض، ولاحظنا أن تجارة السوق السوداء قد نشطت بعد إغلاق شباك التذاكر. مر بجوارنا شاب يهتف طلبًا لشراء تذكرتين من أي أحد يرغب في بيع تذاكره. وجّهته نحو سماسرة التذاكر الموجودين بالمكان فأخبرني أن مخزونهم قد نفد وأنه يريد تذكرتين بأي ثمن له ولخطيبته. اعتذرت بعدم قدرتي على حل مشكلته.. لكن للغرابة فوجئت بزميلي جمعة ينبري عارضًا بيع تذكرته بربع جنيه. وافق الشاب على الفور وأخرج نقوده طالبًا شراء تذكرة أخرى. تلفّت جمعة حوله ثم استقر نظره عليّ واقترب هامسًا: هات تذكرتك بسرعة. قلت له: لا يا حبيبي أنا لن أبيع تذكرتي.. لقد جئت لمشاهدة الفيلم لا للربح في التذكرة. تدخل الشاب طالب التذكرة

وناشد ضميري ألا أخذله أمام خطيبته التي كان على وشك فسخ الخطبة معها، واليوم قد تصالحا وطلبَتْ منه أن يأخذها لتشاهد سعاد حسني. من جانبه لم يتردد جمعة في طرق الحديد وهو ساخن فأمسكني من ذراعي وأخذني جانبًا وقال: يا أخي هذه فرصة.. لنبع التذاكر ونحقق ربحًا ونأتي لمشاهدة الفيلم غدًا ومعنا ثمن العشاء أيضًا.
بدأ اعتراضي يضعف بعد تردد، ثم بدأت ألمح معقولية الفكرة فمنحته التذكرة وأنا أقول لنفسي إن اليوم مثل الغد.
في الطريق قام جمعة بعدة عمليات حسابية خرج منها بأن هؤلاء الذين يبيعون التذاكر على باب السينما بعد أن يشتروها من الشباك يحققون مكاسب خيالية. أمّنت على كلامه فقال: إذا فعلنا مثلهم نستطيع أن ندخل السينما بالمجان، كما يمكننا أن نشتري كل كتب الألغاز وروايات أرسين لوبين وأجاثا كريستي. قلت: هل تقصد أن نتاجر في التذاكر مثل هؤلاء؟ قال: ومالهم هؤلاء؟ إنهم يحققون ربحًا حلالًا من تجارة مشروعة!.. ثم سرح جمعة بخياله قبل أن يقول بحسرة: ولكن مشروعًا كهذا يحتاج لرأسمال. قلت: طبعًا.. هذا مشروع كبير يحتاج على الأقل لخمسين قرش!
قال جمعة: لا.. إننا يجب أن نبدأ على كبير ورأس المال ينبغي ألا يقل عن جنيهين.
لعب الكلام برأسي وتخيلت أنني سأستطيع النزول لسور الأزبكية لأغترف من الكتب المعروضة على الرصيف بغير حدود، غير سندوتشات الشاورمة التي سنشتريها من أكسلسيور قبل أن ندخل السينما كل يوم ببلاش!
في اليوم التالي التقينا على باب دار العرض مبكرًا وقمت بتسليمه جنيهًا كاملًا حصلتُ عليه من سلفيات جمعتُها من إخوتي بضمان المشروع، ووضع هو مثله. لم أشأ أن أسأله عن كيفية تدبيره للجنيه لأنني لم أرغب في الاطلاع على تفاصيل جريمة!
مشينا نحو سينما راديو والأحلام الوردية تداعب عقولنا. أخبرني جمعة أن هذه مجرد بداية؛ لأن لديه مشروعات أكبر سيدخلني معه فيها بعد أن يصير بحوزة كل منا عشرة جنيهات.
سألته عن مشروعات المستقبل فألمح إلى نيته التوجه في المرحلة القادمة نحو المسرح، حيث التذاكر أغلى والربح أوفر. عندما وصلنا إلى السينما مضى جمعة نحو الشباك ليشتري بالجنيهين ١٢ تذكرة.
عاد إليّ متهللًا وفي يده التذاكر: سنبيع عشر تذاكر ونشاهد الفيلم بتذكرتين، ثم يتبقى لنا بعد استرجاع رأس المال خمسون قرشًا مكسبًا صافيًا وهو أول الغيث.
بعد ذلك وقفنا نتابع الطابور أمام الشباك حتى تلاشى بعد نفاذ التذاكر وتم إغلاق الشباك.
في اللحظات التالية يبدأ الشعور بتعطش السوق، ويسود الإحساس بأهمية أي تذكرة تظهر في أي يد وتصير لها قيمة مساوية للهفة طالب الشراء.
هنا نزل جمعة بكل ثقله واندمج في الزحام يعرض البضاعة، ومن الواضح أن الطلب كان عاليًا، مما حدا بالرفيق جمعة إلى أن يرفع السعر ويجعله خمسة وثلاثون قرشًا للتذكرة، وبهذا فقد ارتفعت الأرباح لعنان السماء!.. ياللوغد الناصح الذي يعرف من أين تؤكل الكتف.. يبدو أن جمعة موهوب في البيزنس، إنه يفهم لغة السوق ويستجيب لنبضه بسهولة.. كم أنا محظوظ بك يا جمعة.. سينما وفلوس وعشاء.. أحمدك يا رب.
لكن.. يا إلهي!.. ما هذا الذي يحدث؟.. هل حقيقي ما أراه؟.. إن عصبة من الشبيحة الشداد ينقضون على صديقي ويلكمونه ويركلونه ويسددون إليه الضربات في كل أنحاء جسمه.. إن جمعة يجري فيلحقون به ويعرقلونه فيقع منكفئًا على وجهه، وتنقض عليه الطغمة الباغية فتنتزع التذاكر من يده

وتختطف الفلوس، وكبيرهم يزعق فيه بصوت جهوري ألا يأتي إلى هنا أبدًا وإلا فالموت سيكون مصيره.
أبصرت جمعة يقوم من على الأرض يلملم ملابسه التي تمزقت ووجهه معفر بالتراب وقد تغيرت معالمه، وشاهدته وهو يتغلب على الألم ويطلق ساقيه للريح تاركًا ممر العقاب الرهيب! من الواضح أن منفذي الاعتداء الغاشم بحق جمعة هم تجار السوق السوداء الذين فيما يبدو لا يسمحون للدخلاء بالتعدي على مناطق نفوذهم.
برغم الصدمة والترويع أخذت أقزقز اللب وأتظاهر بمطالعة الأفيش، ثم مشيت متصنعًا الهدوء وابتعدت عن المكان خشية أن يدركوا أنني شريك جمعة في البضاعة!
أما فيلم «أميرة.. حبي أنا» فقد شاهدته بعد ستة شهور عندما هبط من عليائه وعُرض في سينما ريالتو بالظاهر حيث التذكرة بثلاثة قروش ونصف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روماني والأستاذ فهمي

دق جرس الباب وكان الأستاذ فهمي لا يزال يتقلب في سريره. لقد أعطى نفسه إجازة ولن يذهب إلى المكتب اليوم، فما الداعي للنهوض المبكر من الفراش. استمر الجرس يدق فقام في تثاقل وخطا نحو الباب ثم فتحه فوجد ولدًا لا يتعدى الخامسة عشرة من العمر يقف وفي يده شمّاعات عليها قمصان وبنطلونات. منظر الولد جعله يفهم من يكون، ومع هذا سأله: من أنت وماذا تريد؟.

قال الفتى بصوت خفيض: أنا من عند زخاري المكوجي وهذه الأشياء تخصكم. فرك عينيه بيديه ثم دعاه للدخول. تقدم هذا خطوة ثم خلع نعليه وتركهما خارج الشقة ومضى نحو الكنبة الكبيرة فأراح عليها حمولته من الملابس.

كان الأستاذ فهمي جارًا لنا يعيش وحيدًا بعد وفاة زوجته التي تركته دون أن تنجب له أبناء، ولعل شروده وحديثه إلى نفسه كانا السبب في السمعة التي التصقت به كرجل غريب الأطوار. كان السكان ينسجون حوله حكايات عجيبة فزعموا أنه مخاوي جنيّة، وهناك من قال إنه ينصب في شقته مشنقة للقطط بعد أن يصطادها من على السلم حيث تلقى مصيرها الفاجع في الصالة الفسيحة.

لم أكن ممن يصدقون ما يقال عنه، وكنت أعتقد أنه رجل وحيد حزين، كُتب عليه أن يعيش في مكان لا أحد فيه يحترم خلوة الناس ولا أحزانهم. أغلب الظن أن هذه القصص الغريبة من اختلاق خيال مريض، ويبدو أن الإنسان عندما يعيش في حاله ولا يخالط أحدًا فإن هذا يستفز الجيران لمعرفة خصوصياته، فلما يفشلوا ينهشونه ويشيعون أنه مجنون!

سأل الأستاذ فهمي الولد المكوجي كم يريد وهو يمضي إلى الداخل لإحضار الفلوس..عاد إليه وقبل أن ينقده حسابه نظر لعينيه اللتين كان يفتحهما بصعوبة ورموشه التي ترمش بمعدل متسارع، فأحس بإشفاق نحو الولد وخشي أن يكون مصابًا بالرمد أو بأي من الأمراض التي تصيب العيون.

وضع يده علي كتفه وسأله في ود: ما اسمك يا بني؟

رد الولد: روماني.

لم يستطع الرجل أن يخفي دهشته فقال: روماني؟.. روماني إزاي يعني؟

أجاب الولد في ارتباك: إزاي يعني إيه؟ اسمي روماني!

نظر الأستاذ فهمي إليه في تشكك قبل أن يسأله: هل تناولت إفطارًا؟ هز الفتى رأسه نفيًا، فقال له: اجلس يا ابني هنا ريثما أجهز لقمة ونفطر معًا.

بعد قليل عاد صاحب البيت ومعه صينية الإفطار، وبدا على الفتى من لهفته على الطعام أنه هالك من شدة الجوع.

من أين أنت يا روماني؟

قال: من جرجا في الصعيد، وقد أتيت من أجل العمل في مصر.

قال الرجل وهو يزدرد لقمة مع قرص طعمية: تصدق بالله يا روماني؟. لم يرد روماني فأكمل الأستاذ فهمي: والله ما أجلستك هنا وقدمت لك الإفطار إلا من أجل أن أكتشف السر!

قال الولد في قلق: أي سر؟

قال: كيف تكون رومانيًّا وأنت في مصر..ما المناسبة؟

بدا على الولد عدم الفهم فأوضح له قائلًا: لماذا أسماك أبوك روماني وما معناها؟ هل لهذا الاسم مغزى تاريخي لا أفهمه؟
فغر الولد فاه واستمر يرسل نظراته التائهة التي تنم عن عدم فهم للألغاز التي يسمعها.
حدجه الأستاذ فهمي بنظرة فاحصة يريد أن يعرف هل الولد عبيط أم يتصنع العبط.
وضع الرجل طبق البيض أمام المكوجي الغلبان وناوله رغيفًا ثانيًا ثم قال يشجعه: لا مشكلة يا بني في أن يكون اسمك روماني.. المهم أن نفهم لماذا!
اندفع الولد في التهام الطعام ويبدو أنه قد قرر أن الحوار مع هذا الرجل مضيعة للوقت، وأن الأكل خير من الاستماع لكلامه العجيب.
بعد تردد دخل الأستاذ فهمي في الموضوع وسأله مباشرة: هل أنت روماني من رومانيا..من عند شاوشيسكو في بوخاريست، أم أنك روماني من عند موسوليني في روما؟
هز الفتى رأسه في تعجب وندت عنه ابتسامة معناها: قل ما شئت أيها الرجل المخرف، أما أنا فسأكمل طعامي.
دفع فهمي طبق الأجبان برفق ليقربه من يد الولد الروماني ثم قال وكأنما يحادث نفسه: لو كان هذا الفتى منسوبًا لروما لكان اسمه رومي بدلًا من روماني، لكن مهلًا..ما المشكلة في أن يكون من روما ويكون رومانيًّا في نفس الوقت..لقد كانت الإمبراطورية العظيمة وعاصمتها روما تسمى بالدولة الرومانية لا الرومية.
خرج الرجل من أفكاره وعاد إلى صبي المكوجي ينظر إليه ليستحثه على الكلام: قل شيئًا يا روماني.أنت تابع لبوخاريست أم لروما؟
رد الولد والأكل يملأ فمه: يعني إيه يا باشا؟
فكّر فهمي قليلًا ثم سأله: ما اسم أبيك؟
قال: أبويا اسمه فايز.
قال فهمي: كلام معقول، لكن ما الذي يجعل فايز الصعيدي ابن جرجا يفكر في الدولة الرومانية وينحت منها اسمًا لوليده؟
لم يرد روماني لأنه كان منشغلًا بلحس بقايا طبق مربى التوت، ومن جانبه غرق الأستاذ فهمي في التفكير من جديد..لقد اعتدنا على مصريين أسماؤهم سعودي وعراقي ومغربي، كما عرفنا عائلات التونسي والشامي وحتى السويدي، أما روماني هذا فشيء مختلف، لأن رومانيا الواقعة بالبلقان والتي تكونت كدولة في نهاية القرن التاسع عشر بعد انفصالها عن الدولة العثمانية لا يربطنا بها تاريخ يسمح بمصاهرة وتزاوج، ولقد التحقت بالمعسكر الشرقي بعد الحرب العالمية الثانية وحكمها شاوشيسكو بالحديد والنار..أما الدولة الرومانية سواء الغربية وعاصمتها روما أو الشرقية وعاصمتها القسطنطينية فقد كانت طوال تاريخها معادية للمصريين والعرب بمسيحييهم ومسلميهم على السواء..شيء محير!
أحضر فهمي الشاي والبسكويت وقدم للفتى كوبًا أخذ يرتشفه في هدوء.
يا روماني.. يا ابن الناس، قل لي، فهّمني..هل لدى والدك أسباب لهذا الاسم؟ ما قولك أن تطلبه في التلفون وأنا سوف أسأله وأفهم منه؟
قال هذا ثم مد يده وجذب عدة التلفون وناول الولد السماعة، لكن روماني اعتذر قائلًا: والدي يعيش في البلد بالصعيد وليس عنده تلفون.

بدأ فهمي يشعر بالضيق لكنه أكمل المحاولة: ألا يعرف أبوك أن الرومان الذين نسَبك إليهم قد اضطهدوا المسيحيين وقتلوا منهم الآلاف..ألست مسيحيًّا يا بني؟ هز الولد رأسه بالإيجاب ثم التقط قطعة بسكويت ومضغها في تلذذ. استمر روماني يرشف الشاي ويأكل البسكويت في سعادة وكأنه لا يسمع ما يقال، بينما دخل فهمي في نوبة حماس: ألم تسمع أنت وأبوك عن عصر الشهداء حيث قام الإمبراطور الروماني دقلديانوس بحملة تعذيب وقتْل راح ضحيتها الكثير من المؤمنين الذين فضلوا الموت على ترك المسيحية؟

رفع روماني عينيه المغمضتين وقال بعد أن فرغ من الشاي: هل عندك ملابس أخرى آخذها معي للمحل؟

قال الرجل في حيرة: أي ملابس وأي محل؟ ليس قبل أن نحل الإشكالية التي أثارها ظهورك في بيتي اليوم!

قام الأستاذ فهمي فمضى إلى المكتبة وانتزع كتابًا قلّب فيه بسرعة ثم وقف عند إحدى صفحاته وأخذ يقرأ للفتى: إن دقلديانوس الذي حكم من ٢٨٤-٣٠٥ ميلادية كان أكثر الأباطرة الرومان قسوة ووحشية حتى أن ضحاياه الذين لا حصر لأعدادهم كان من بينهم: مار جرجس والقديسة دميانة والأربعين عذراء والقديسة مارينا الشهيدة والقديس أبانوب النهيسي ومارمينا العجايبي والأمير تادرس المشرقي وجميع أفراد الكتيبة الطيبية.

فرغ من القراءة ثم توجه إلى الفتى يسأله: ما قولك؟..أبَعْد كل ذلك بدلًا من أن يسميك أبوك على اسم أحد القديسين أو الشهداء إذا به يطلق عليك ببساطة روماني ثم يتركك تمضي في الحياة وتواجه مصيرك..إن من حسن حظك أن الناس تعيش الآن في أزهى عصور الكسكسي وأن أحدًا في هذا البلد ما عاد مدركًا لشيء وإلا لأشبعوك همزًا وسخرية..إن روماني هذا يا ولدي يوازي عند المسلمين أن يسمي أحد ابنه أبو لهب على اسم المشرك الذي اضطهد الرسول وأصحابه، أو أن يسميه يزيد على اسم المجرم قاتل الإمام الحسين.

ابتسم روماني وأخذ يرمش ثم قال يهدئ خاطر صاحب البيت المنفعل: حكاياتك حلوة يا أستاذ..احكِ لي واحدة ثانية، لكن الأول اعمل لنا دور شاي بحليب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبراهيم سنون

اصطدمتُ به بينما كنت أسير مسرعًا نحو بيتنا القديم الذي لم أذهب إليه منذ فترة. كان يرقد داخل كرتونة على الرصيف في الظلام بحيث لا يبين، لا هو ولا كرتونته. كدت أن أقع مكفيًّا على وجهي لولا أن استندت إلى شجرة بمنتصف الرصيف.

سمعت أنينه خافتًا، فأطللت برأسي على البائس الراقد أسفل بطانية قذرة فوجدته هو.. نعم هو إبراهيم سنون البلطجي الصغير الذي كان يجوس داخل منطقتنا بالظاهر طوال الوقت. كان هذا في زمن الطفولة عندما كان كل الناس أصدقاءنا.. لم نكن نكره أحدًا أو نستعلي على أحد.. ولماذا نستعلي إذا كنا كلنا أحباب الله؟

في ذلك الوقت كان الأطفال الذين نلعب معهم بالشارع ينقسمون إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول التلامذة المماثلون لنا من جيران السكن الذين يدرسون بمدرستنا أو بالمدرسة المجاورة، والنوع الثاني هو الصنايعية أو صبيان الصنايعية الذين يسكنون معنا، لكن أهلهم بدلًا من إرسالهم للمدرسة فضّلوا أن يلحقوهم بالورش، حتى يتعلموا صنعة يأتون منها بقرش ينفع في الأيام السوداء (بالمناسبة كل أيامنا سوداء منذ وعيت على الدنيا وحتى الآن)؛ فكان منهم صبي النجار وصبي المنجد وصبي الجزمجي. النوع الثالث من أطفال حينا هم الذين لا يدرسون ولا يعملون، لكن يتسنكحون ويمارسون البلطجة ورمي الجتت على الناس للخروج بثمن اللقمة والسيجارة.. نعم كان الأطفال في مثل سني من أولاد الشوارع يدخنون السجائر والسبارس.

العجيب في تلك المرحلة العمرية هو أننا لم نكن نجد غرابة في مصادقة المهمشين والسناكيح؛ لأننا لم نكن نعرف أنهم مهمشون وسناكيح!.. كنا نراهم أطفالًا مثلنا ولم نكن نعرف الفرز الطائفي أو الثقافي أو الاجتماعي، ذلك الذي عصف بنا بعد أن كبرنا وأصبح المتعلمون منا (رغم الفقر) يستنكفون أن يُشاهَدوا بصحبة رفاق الطفولة من الصنايعية وقبلهم طبعًا الصيّع والسبرسجية!

ما زلت أذكر أننا التلامذة كنا أكثر شقاء من رفاقنا الصنايعية والمتشردين، إذ كان النوعان السالفان يمتلكان الفلوس التي نفتقدها، وبها يشترون ما نشتهيه ولا نستطيع الحصول عليه مثل تأجير دراجة أو الذهاب للسينما.. شيء شديد الغرابة أننا نحن الذين كنا نقاسي الحرمان!

في ذلك الوقت كان المعلم سنون يعيش في ميدان بركة الرطلي داخل عشة صفيح بناها لنفسه على الرصيف، وكانت تسكن معه امرأته زغَدَانة.. لا أعرف إذا كان هذا اسمها الحقيقي أم لا، لكنه الاسم الذي كانت النساء يطلقنه عليها، وابنته مانّا وابنه إبراهيم.

لم تكن للأخ سنون شغلة أو مشغلة.. كان طوال الوقت يشتم أفراد أسرته ويبصق على الرائح والغادي من جلسته على الشلتة على حافة العشة حيث يطل على الشارع، حتى أتى يوم وركن إلى جواره بائع تين شوكي وقف يبيع إلى جوار رصيف عم سنون.

بمحض الصدفة نالت بائع التين بصقة عظيمة من بصقات سنون التي كان يطلقها بانتظام كل عدة ثوانٍ. سقطت البصقة على يد الرجل فأفزعته وجعلته يسب ويلعن. وهنا نحّى الريس سنون الجوزة التي كان يدخنها ونهض من مكانه، ثم توجه إلى بائع التين الشوكي وسدد إليه فاصلًا من اللكمات، ثم برقت في ذهنه فكرة شيطانية فقرر أن يستولي على عربة التين لنفسه. ضرب سنون الرجل الذي بدا

عليه أنه فلاح طيب.. ضربه حتى كوّمه على الأرض ثم استولى على عربته، ورفعها إلى الرصيف وألصقها بالعشة قبل أن يعود للرجل مهددًا: امش من هنا وإياك أن تعود حتى لا تفقد حياتك.
نظر بائع التين إلى عيني سنون فوجدهما تفحّان وتطلقان الشرر، فوقع الرعب في قلبه وخشي على حياته، فجرى مبتعدًا وترك العربة والتين ولم يعد ثانية.
كانت غريبة للغاية الطريقة التي استولى بها سنون على بضاعة الرجل القروي، الذي لا شك قد أتى من بلدته ليسترزق بالقاهرة، فإذا بالعربة تضيع ومعها البضاعة. الأغرب أن أحدًا لم يحرك ساكنًا لنصرة بائع التين أو لرد سنون عن غيه. لم يكن أهل الحي يخافون منه بعد أن عاش إلى جوارهم طويلًا، لكنهم مع ذلك كانوا يؤثرون البعد عن الصداع!
منذ ذلك اليوم أصبح سنون يلقب ببائع التين الشوكي، ويبدو أن اللقب أسعده بعد أن عاش طويلًا في ظل لقب سنون المتشرد.
ومن الجدير بالذكر أنه بعد أن باع حمولة العربة من التين عجز عن معرفة من أين يأتي ببضاعة أخرى، فكان يسأل الجيران من سكان الشارع عن كيفية إحضار شحنة تين شوكي جديدة. كان بعضهم يستسهل السخرية منه فينصحه بأن يسطو على عربة جديدة ويجرد صاحبها مما بها، لكن هناك من نصحه بالتوجه إلى الفلاحين القادمين إلى سوق بندقة في باب الشعرية كل يوم اثنين ليشتري منهم ما تيسر من التين.
كانت هناك مشكلة أخرى عانى منها سنون.. لم يكن الرجل خبيرًا بكيفية تقشير التينة دون أن يدمي أصابعه بالشوك، فظل يصرخ لياليَ طويلة من الألم وحرم الناس من النوم حتى قاموا إليه فأشبعوه شتمًا، ثم قدم إليه أحدهم ملقاطًا وعلّمه كيف ينزع الشوك من يديه أولًا بأول.
في ذلك الوقت كان شكل سنون يخيفني؛ لأن تراكم الأوساخ على جسده لسنوات طوال جعل بشرته تسوَدّ، وكانت ابنته مانّا مخيفة أكثر منه بشعرها المنكوش وجلبابها الكالح الذي لا يتغير.
أما إبراهيم سنون الذي كان أكبر منا قليلًا وكان يتميز بالطول وبالسُمرة الصناعية (ليست تان لكنها وساخة) فلم يكن يرتدي حذاءً أبدًا، وكان يخرج في طلعات قنص على أطراف الحي فيعود وفي يده زجاجة لبن سرقها من محل بعد أن غافل صاحبه، أو سندوتش أخذه من يد تلميذ بعد أن نظر في عينيه فأخافه!.. كان يكفي إبراهيم أن ينظر في عيني تلميذ حتى يأخذ التلميذ في البكاء ويترك سندوتشاته وزمزمية الماء ويجري. ومع ذلك كنا نسمح لإبراهيم سنون أن يلعب معنا في تقسيمة الكرة، وكنا نجعله يقف حارسًا للمرمى لنتجنب لمسه والاحتكاك به قدر الإمكان. أما عندما كنا نلعب (بِلْي) فإن إبراهيم كان يفرض نفسه ويلعب معنا بالإكراه ولم يكن يقبل الخسارة بسهولة. ذات مرة لعب معي فخسر واستوليت على كل البلي الذي معه.. نظر في عينيّ متوقعًا أن أخاف وأعيد إليه ما خسره فلم أهتز.. أسقط في يده فانصرف سريعًا واختفى، ثم عاد بعد قليل ومعه صديق متشرد ذا وجه إجرامي اسمه أبو الليل.
طلب مني أن أستأنف اللعب معه ومع أبو الليل وقال لي: كفّيني لعب.. لقد اتفقنا أن (القومة) على التأليش!.. وهو مصطلح في دنيا القمار يناقض النوع الآخر وهو القومة على الكيف!.. على الكيف يعني بإمكانك الانسحاب في أي لحظة أثناء اللعب، أما القومة على التأليش فتعني أن أجلس معه حتى آخر قرش أو آخر بلية.. ورغم أنني أفقدته كل ما معه، فها هو يتزود من جديد ويأتي وفي يده أبو الليل.. المخيف.

كان إبراهيم سنون مفزعًا بالنسبة للأغراب، أما نحن وقد تعودنا عليه فلم يكن يخيفنا كثيرًا، لكن بالنسبة للأخ أبو الليل الذي لم نعرف من أين أتى فالوضع كان مختلفًا.. لقد خشيت من الدخول في منازلة مع الوحشَيْن لن تكون نتائجها مضمونة، فقررت أن أعيد لإبراهيم سنون ما خسره على أساس أننا أبناء حي واحد و(مايصحّش نعض ف بعض).. كانت هذه مصطلحات حفظ ماء الوجه عند الهزيمة.. ولا تزال!

تركنا الحي وانتقلنا لحي آخر، وكبرت وسافرت خارج البلد وعشت سنوات طويلة بعيدًا عن مصر، ونسيت سنون وولده إبراهيم حتى كأنهما لم يكونا.. واليوم أصطدم على الرصيف في الليل بكرتونة ينام فيها إبراهيم سنون وأتذكر كل ما فات.. نفس الوجه لكن زادته السنون تجاعيد وتشوهات. نظرت إليه طويلًا وهو متكوم فرفع بصره لأعلى ونظر بجانب عينه وقال بصوت متحشرج دون أن يراني: عايز إيه بديك أمك!

لم أتمالك نفسي من الضحك فناولته سندوتشين كنت أحضرتهما لعشائي وقلت له: خذ يا ابن الصرمة.. هذه لك. سحب اللفة مني بسرعة وهو يبصق في الهواء.. خشيت أن تصيبني بصقاته بعيدة المدى التي اكتسبها بالوراثة فابتعدت، ولكني تذكرت أباه سنون الأصلي فسألته من بعيد: أبوك عايش ياض يا إبراهيم؟

سعل وبصق وقال: مَيّتين أمك إنت وهو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ميمي مفتاح

معاناة الناس في بلادنا ليست جديدة ولا هي وليدة اليوم.. طول عمري أسمع عن الأزمات.. أزمة أرز.. أزمة فراخ.. أزمة سكر وزيت.. أزمة مرور. الحياة كلها عبارة عن فصول بايخة متوالية من الأزمات.. لكن من أطرف الأزمات التي عاصرتها أزمة نقص الحشيش في الأسواق وارتفاع أسعاره إلى مستويات غير مسبوقة!

حدث هذا في أوائل الثمانينيات وكنت تجد الأصدقاء يسألون بعضهم في جدية عن كُرسي حشيش أو تعميرة زائدة يمكن أن يقترضها الصديق من صديقه، كما أنني شهدت أمام عيني عركة كبيرة نشبت بين اثنين من القهوجية للخلاف على عدسية أفيون اقترضها أحدهما ولم يقم بإرجاعها!

وعلى الرغم من أن أزمة المخدرات هذه قد تستجلب السخرية وتستدعي الظرفاء من الكُتاب ورسامي الكاريكاتير ليحولوا الأزمة إلى فنون منشورة، إلا أنني كنت أنظر للأمر بجدية وآخذ آلام المحرومين على محمل الجد، خاصة وأن منهم جيرانا وأصدقاءً وزملاء مدرسة!

وبالرغم من أنني كنت أقف دائمًا خارج زمرة أهل الكيف، فقد كنت أومن بما سمعته من أحد الحكماء عن أن أي مجتمع في الدنيا يحتاج إلى قدر من التنفيس، والناس في كل زمان ومكان توجد بينهم شريحة تتعاطى المخدرات، وهذه الشريحة ليست ثابتة ولكن يدخل إليها كل يوم أعضاء جدد ويخرج منها أفراد جرّبوا ولم يقتنعوا.

في تلك الأيام من الثمانينيات كانت تلمع في سماء القاهرة أسماء مدوية كالطبل، مثل كُتكت وأم عنتر ومصطفى مرزوق وهم تجار مخدرات أصدقاء للشعب، بضاعتهم جيدة وأسعارهم معقولة، وقد نجحوا في الحفاظ على سمعتهم الطيبة أثناء الأزمة فلم يفعلوا ما فعله غيرهم من الذين قاموا بتعطيش السوق من أجل رفع الأسعار. كنت أسمع عنهم من بعض أصدقائي وأندهش من فكرة أن يشتري الناس الحشيش من الباطنية والجيارة وغيرها على الملأ، ولم أكن أصدق حكاية من يقفون في الحواري وأمامهم طاولات، يقومون بتقطيع الحشيش عليها ومعهم موازين دقيقة تؤدي عملها بالعدل والقسطاس، والباعة سعداء والمشترون راضون.

في مرحلة أخرى من حياتي رأيت كيف يباع الحشيش في هولندا تحت مظلة القانون، كما رأيت تجار الصنف يمرحون في شارع سانت كاترين بمونتريال وفي مانهاتن بنيويورك، والتقيت كذلك بمن يبيعون الهيروين في السالمية بالكويت.

عندما عرض عليّ (ميمي مفتاح) أن يصطحبني معه في رحلة إلى الباطنية لشراء التموين الخاص به سألته عن معدلات الأمان في الرحلة، فطمأنني بأنه حيثما توجد راحة البال يوجد الأمان!

وجدت نفسي أرحب بالفكرة وأنا أشعر بالإثارة الممزوجة بالخوف.

كان ميمي من الحشاشين العتاولة الذين يدخلون في تحديات لا لزوم لها من أجل إثبات البطولة، وكنت أنظر لهذه التحديات في شرب المخدرات بتعجب؛ لأنها تفقد المزاج تلقائيته وتحول الأمر لمباراة ليس بها متعة لكن بها فوز وهزيمة!

كان ميمي زميلًا لي في السابق أيام إعدادي وجارًا يسكن بالبيت المجاور، وقد سُميَ مفتاح لأنه ورث دكان والده لتصنيع المفاتيح على ناصية شارعنا.. وقد ترك المدرسة وتحمل مسئولية أسرته بعد وفاة الوالد. استمرت الصداقة بيني وبين ميمي رغم انقضاء سنوات على زمالة المدرسة.

دخلت الباطنية مع ميمي من جهة شارع الأزهر ففوجئت بوجود قوة شرطة مسلحة على باب المنطقة، وعرفت من صديقي أنه من المستحيل أن يعثر البوليس على أي شيء عند عمل الحملات لأن النواطير يتولون الإبلاغ الفوري لدى أي تحرك. أخبرني ميمي أن التواجد الدائم للشرطة بالمنطقة يكفل التعامل الأمين بين البائع والمشتري داخل الحارة، خشية الخلافات التي قد تحمل ممثلي القانون على التدخل.. ورأيت للأمانة أن هذا هو جوهر القانون ومبرر وجود أجهزة الأمن.. أقصد إشاعة الوئام بين الناس وتغليبهم لروح الود!

شاهدت كل ما سمعت عنه ورأيت بعيني قوانين السوق والتجارة الحرة ومفاهيم الجات.. ودعه يعمل، دعه يمر، دعه يلف في السولوفان!

شعر صديقي ميمي مفتاح بأنني قد يداخلني الملل من هذا المشوار الغريب، فمال ناحية أحد البقالين وأحضر لي بسطرمة وجبنة رومي وزيتون؛ لأنه يعلم أن هذه الأشياء قادرة على ضبط مزاجي بنفس قدرة الحشيش بالنسبة له.. جلست على حجر بالحارة آكل البسطرمة وأشاهد صديقي يتقدم في الطابور المنتظم ويحصل على مبتغاه.

بعد ذلك واصلنا توغلنا داخل الباطنية حتى نهاية الشارع ثم صعدنا مرتفعًا بدأ يعلو ويعلو، وأدركت بعد أن صعدت قليلًا أننا فوق جبل من الزبالة والركام والأتربة. أكملنا الصعود وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله.

سألت ميمي عن الغرض من صعود التل فأخبرني أنه سيقوم بضرب حجرين في واحدة من العشش المنتشرة فوق قمة جبل الزبالة. الجدير بالذكر أن هذا التل قد أزيل وأقيمت مكانه الآن حديقة الأزهر.

جلست بجوار صديقي داخل عشة رثة وأنا أتابع بعينيّ الجالسين بجوارنا على الأرض وكانوا من كل نوع.. منهم بهوات ويبدو ذلك من ملابسهم ورائحة برفاناتهم وكذلك مفاتيح سياراتهم، منهم كذلك طلبة وأفندية يعملون بوظائف الحكومة، كما أن من بينهم أعمالا حرة وصنايعية، ولكل مجموعة صبي مخصوص يقوم بالتخديم عليها فيحضر الفحم ويضبط الجوزة ويوقع بإمضائه فوق كل حجر.

بذل ميمي محاولات يائسة لحملي على التجريب حتى أكون جزءًا من الأحداث لا شاهدًا عليها، وكان لا يفتأ يقول لي إنه يريد إغوائي حتى لا يكون في وسعي في المستقبل أن أعيّره بنزاهتي وارتفاعي فوق الكيف، الذي كان يذله هو وغيره من أصدقاء الشلة.. والحقيقة أنني لم أكن لأمانع من التجريب حتى لا أحرجه لولا حكاية انتقال الجوزة من فم لفم.. كانت شيئًا مقرفًا بالنسبة لي، وكنت أتصور أن الجالسين على غير ميعاد ولا يعرفون بعضهم البعض لا بد وأن بعضهم مصاب بأمراض مُعدية، ومن ثم حسمت قراري بالرفض القاطع.

كانت العشة مظلمة وكذلك العشش المجاورة، وكان ضوء شمعة أو مصباح جاز في كل عشة يكفي لرؤية خيالات مخيفة على الحوائط. انتشر الضحك المتصاعد من العشش في جنبات الجبل، رغم أن النكت والإيفيهات الصادرة عن الجالسين كانت شديدة السماجة وليس بها ما يضحك، غير أن ضعف الإحساس لدى أهل الكيف كان يسهل ضحكهم على أي شيء!

فجأة دوى في الظلام صوت جهوري أجش كأنه صادر من جوف تنين صارخًا على مقربة من أذني: الحكومة يا صلاح!

لم أعرف من هو صلاح ولكن الشموع انطفأت وساد الهرج وما أدري إلا وصديقي يشدني من يدي ويدفع بي إلى الجانب الآخر من المنحدر، وإن هي إلا لحظات حتى تعثرنا ووقعنا وتدحرجنا، ثم وجدت نفسي أقوم مدفوعًا بالرعب أجري وحدي مبتعدًا في طريق صلاح سالم.. أما ميمي فقد انتظر

في الجوار وكمن خلف صخرة يرقب الموقف، ثم عاد إليهم بعد قليل يستكمل الضرب بعدما انقشع الغبار وغادر المخبرون المكان ومعهم عدة أشخاص بحوزتهم الكيف والأدوات.. عاد الشقيّ ولم يبال باحتمال غارة جديدة قد تدهم جبل الزبالة من جديد!

ظللت على صلة بميمي بعد أن كبرنا وتغيرت أحوالنا وذهبنا كل في اتجاه، وكنت أمر عليه في المحل كل عدة شهور وأجلس معه نجتر ذكريات الأيام الخوالي.. وكان هذا من الطقوس المحببة إليّ نظرًا لخفة ظله وجموحه الشديد.

غبت عن البلد فترة وعندما مررت عليه بالمحل أخبروني أنه مات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حنفي

كلما مررت بميدان الجيش بالقاهرة وشاهدت محل العطارة على الناصية تذكرت أنه كان في السابق قهوة نجلس عليها ونحن طلبة، وتذكرت شلة الأنس التي كنت أجلس بصحبتها في هذا المكان.. يا سبحان الله.. أين هم الآن؟ كنت على صلة بأقل القليل منهم، أما أغلبيتهم فقد اندثرت سيرتهم بالنسبة لي ولم أعد أعرف أخبارهم إلا بالصدفة.

من ضمن هؤلاء الذين لا يمكن أن أنساهم من رواد هذا المقهى كان الرفيق حنفي زميلي بمدرسة الأهرام الثانوية.

كنا في الصف الثالث والامتحانات على الأبواب عندما لقيته مصادفة يتسكع في الشارع. سألني إلى أين؟

أجبت بأنني مفلس وبالتالي ليس عندي خيارات كثيرة، والأفضل أن أعود للبيت لأبدأ سهرة مذاكرة أعوض بها ما فات.

تنحنح حنفي وبصق مقلدًا الكبار المعفنين ثم لعن الدراسة والكتب والمدرسين، وتلا على مسامعي خلاصة تجربته في الحياة وهي أن الشخص التافه ذا الدماغ الفارغ فقط هو من يهتم بالمذاكرة ويبذل فيها جهدًا، أما صاحب الفكر مثلي ومثله فلا يحتاج لحشو رأسه بمناهج وضعها مدرسون لا يدرون من الدنيا شيئًا!.. قال هذا ثم أتبع كلامه الحكيم بعرض سخي وجدته أحلى من المذاكرة بكثير.

قال حنفي: ما رأيك في أن أدعوك على واحد سحلب في القهوة، وبالمرة نلعب دورين شطرنج؟ عندما لمح ترددي قال: لا تخف.. أنا الداعي ولن أكلفك شيئًا.

قلت له: أنت لا تستطيع أن تكلفني أي شيء لأن الريح تصفر في جيوبي وليس معي مليمًا واحدًا.

قال: لماذا التردد إذن.. قلت لك على حسابي وسوف نلعب شطرنج.

ضحكت من إصراره وقلت: بالنسبة للسحلب يا سيد حنفي، أنا موافق.. أما موضوع الشطرنج فلا داعي منه لأن الحمار أكفأ منك في الشطرنج!

رد في غيظ: العرض يشمل الاثنين معًا.

دخلنا المقهى فجلسنا وانجعص حنفي في كرسيه واضعًا ساقًا فوق ساق وهو يطلب من القهوجي كوبين من السحلب بالبندق وشطرنج، بالإضافة إلى شيشة تمباك!

شعرت أن اجتماعًا يدور بين العاملين وصاحب المقهى لمناقشة طلب الفتى الصغير للشيشة، قبل أن يحسموا أمرهم وينتصر البيزنس على أي تحفظات.

أخذ حنفي يسحب أنفاسًا بهدوء وهو يفكر في حلول للمشكلات التي سببتها له في الشطرنج (كنت لاعبًا جيدًا في ذلك الوقت).

بعد أن هزمته بسهولة جحظت عيناه وأصر على لعب دور ثان. لم أتحمس لأنه لم يكن ندًّا، لكنه في سبيل إغرائي عرض أن «نطبّق».

قلت له مدهوشًا: كيف نطبق؟.. التطبيق يعني أن كلا منا قد فاز بدور، لهذا نلعب دورًا ثالثًا حاسمًا، أما وأنني فزت في المباراة الأولى فكيف نطبق؟

رد حنفي وهو يسعل من الشيشة: المحدثون قرروا أن التطبيق يجوز بعد الدور الأول خاصة إذا أتى معه دور سحلب ثان!

وجدت العرض لا بأس به وقلت أعابثه: هل وقعت اليوم على كنز أم أن والدتك كسبت شهادة استثمار مجموعة ج ذات الجوائز؟.. إنني لم أعهدك بهذا الكرم أبدا.
قال وهو يعيد رص القطع: العب وأنت ساكت وبلاش لماضة.
لم يستغرق الأمر كثيرًا وهزمته للمرة الثانية ثم استأذنت منه في الرحيل لكنه أصر أن نلعب دورًا أخيرًا.
في الحقيقة كانت الجلسة قد بدأت تصبح أكثر إمتاعًا، خصوصًا بعد أن تهور حنفي وطلب لنا طبقين من العاشورة بالزبيب، الأمر الذي دفعني لسؤاله بجدية عن مصدر المال الذي ينفقه بسخاء.
أجابني بأنه يساعد والده في محل الكهربائي الخاص به وأنه يحصل منه على أجر مثل باقي العاملين.
استغربت أن ينتظم في مساعدة والده في المحل الآن بعد أن أصبحت الامتحانات على الأبواب، لكني لم أشأ أن أحاصره بالأسئلة حتى لا يغضب ويسك على العاشورة بالزبيب!
غرقنا في الشطرنج وانقضى الوقت سريعًا ووجدت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل فشعرت بضرورة الانصراف.
قال حنفي وهو محمر العينين من أثر الشيشة التي لم تفارقه طيلة الجلسة: سنخرج معًا لكن بعد أن أشرب حجرًا أخيرًا.
قلت: وهذه الشيشة أيضًا ما حكايتها، منذ متى تدخن التمباك؟
قال: ألا تلاحظ أن أسئلتك أزيد من اللازم هذه الليلة؟
قلت: من الطبيعي أن أسأل خاصة وأنك تدخن تمباك وكنت في السابق لا تقوى على ثمن المعسل.
رد حنفي وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى: ما دامت مجانية ولن أدفع فيها فلوسًا فلماذا لا أدخن وأستمتع.. هل تحب أن أطلب لك واحدة؟
أربكني كلامه ولم أفهم شيئًا. سألته ماذا تقصد بأنك لن تدفع شيئًا؟
جاء رده صاعقًا: يا عزيزي لست أنت المفلس الوحيد.. أنا مفلس مثلك تمامًا وفي جيبي من الريح أكثر مما في جيبك!
أحسست أنه أغمد خنجرًا في قلبي فدارت الدنيا بي ولم أدر كيف أتصرف.
نظرت إليه مرعوبًا وأنا أتمنى أن يكون كلامه هذا مزاحًا وقلت له: مش وقت هزار يا حنفي.
رد وابتسامته ما زالت تكسو وجهه: والله العظيم ما هزار.
قلت بصوت خفيض يمتلئ غضبًا: الله يخرب بيتك وبيت أيامك السودا.. كيف طاوعتك نفسك أن تفعل هذا بنا، الآن سيطلبون البوليس وقبل ذلك سنأكل علقة من عمال القهوة وستكون فضيحة.. ماذا أقول لأبي؟
ضحك حنفي في استهانة وقال: استعمل مواهبك يا أخي.. أنت لست مجرد لاعب شطرنج ماهر، أنت أسرع واحد في المدرسة في العَدْو، وقد جاء الأوان الذي تجري فيه من قلبك مدفوعًا بالرعب!
قال هذا في بساطة ثم نهض وتقدم خطوتين للأمام فأصبح على الرصيف ولم يلبث أن أطلق ساقيه للريح!
أحسست بمزيج من الحيرة والخجل والارتباك، لكن قبل أن يفيق العاملون بالمقهى وهم يشاهدون حنفي يطوي الأرض طيًّا، وجدت نفسي أحذو حذوه وأقفز في الهواء قفزة رشيقة وضعتني بالشارع، ثم عدوت بأقصى قوة، فلما ابتعدت قليلًا نظرت خلفي فأبصرت العاملين بالمقهى يقفون على الرصيف يضربون كفًّا بكف وهم عاجزون عن تصديق ما حدث.

ظل الشعور بالعار يلازمني لأنني كنت مضطرًّا لتجنب السير على نفس الرصيف، وكانت مشكلتي أنني لا أستطيع أن أذهب إليهم وأدفع الفلوس، بعد أن أقول أنا شريك اللص وقد شربنا وأكلنا ثم جرينا.. كان الأمر أصعب من قدرتي على مواجهته.

مرت سنوات قبل أن أذهب إلى نفس المقهى وأجلس وأطلب سحلب، ثم أنتحي بصاحب المقهى وكان هو نفسه لم يتغير، وأحكي له الحكاية التي لم يتذكرها فينفجر في الضحك. ولم أشعر بالراحة قدر شعوري بعد أن دفعت للرجل مبلغًا محترمًا تعويضًا عن الجريمة القديمة.

أما حنفي فيعلم الله وحده أين هو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحي يريد زوجة

كان فتحي قد سبقنا في التخرج وحصل على بكالوريوس التجارة، في الوقت الذي كنا فيه مطحونين في المذاكرة. لم يكن الوغد يتورع عن المرور بنا على ناصية الشارع وإغاظتنا، ليس فقط لأنه انتهى من همّ الدراسة، لكن لأنه التحق بالعمل سريعًا في مكتب محاسبة بعد الحصول على إعفاء من التجنيد لكونه وحيدًا. وقد سمح له وضعه هذا أن يكون الأول من بيننا الذي يحصل على مرتب شهري، بينما جُلنا يمد يده للأهل من أجل المصروف. صحيح أنه كان ملتزمًا بدفع حساب القهوة والسجائر وما تيسر من السندوتشات، لكن هذا لم يمنع أن نشتمه كلما رأيناه ينزل من البيت متأنقًا متعطرًا في الطريق إلى السينما، بينما ماكينة الامتحانات تلتهمنا التهامًا.

بعد أن وضعت الامتحانات أوزارها دعاني فتحي لخروجة على حسابه فجلسنا في حديقة الكازينو على شاطئ النيل نلتهم سندوتشات الشاورمة. هو صديقي منذ الطفولة، ولي معه جولات ومغامرات من كل صنف ولون، وكانت علاقتي به تختلف عن صداقتي بغيره، فبيننا حوارات ممتدة عمرها من عمر صداقتنا. التقينا اليوم بعد غياب وبداخل كل منا رغبة في معاودة ما انقطع من حديث.

قال فتحي: أريد أن أتزوج.. أحلم بفتاة تسعدني وتخلف ظنوني في السعادة المستحيلة.. كثيرًا ما أطيل النظر إلى الفتيات بالشارع وأسأل نفسي: مَن مِن بينهن سوف تكون زوجتي في المستقبل؟ أقصد من أي الأصناف ستكون؟

قلت: أراك تتحدث عنهن كما لو كنّ أصنافًا من البقالة في سوبر ماركت.. الناس تقول أنواع يا بني آدم مش أصناف!

ليكن يا سيدي الدوق.. قال فتحي.. لن نختلف، لكن قصدي هو.. قاطعته: أفهم قصدك لكن ما هو النوع الذي تريده؟

أجاب: ليس نوعًا معينًا.. مشكلتي أنني أقبل بكل الأنواع، لست من الذين يشترطون أن تكون محجبة أو أن تكون سافرة، ولا من الذين يشترطون أن تكون غنية أو على قد الحال.. إنني يا صديقي أقبل بالمتحررة ما دامت مؤدبة، وأقبل بالملتزمة ما دامت متفتحة، وأقبل بالمثقفة ما دامت متواضعة، وأقبل بمحدودة التعليم ما دامت ذكية.. كل الأنواع مقبولة وممكنة، لكن السعادة مع ذلك ستظل حلمًا بعيد المنال.. قال هذا ثم أتبعه بسؤال: وأنت يا أفندي.. ما طلباتك في عروس المستقبل؟

قلت بعد تردد: أنا طلباتي بسيطة.. أريدها طيبة، حنونة، قليلة الكلام حتى لو افتقرت إلى كل ما ذكرتَ سالفًا.. هذا هو كل ما أريده. قال فتحي ضاحكًا: أنت تريد كل شيء يا رجل.. يبدو أننا نتحدث عن شيء واحد لكن بتعبيرات مختلفة.. الفتاة الطيبة الحنونة قليلة الكلام هي حلم الرجل منذ آدم إلى اليوم..

توقف فتحي قليلًا ثم استطرد: إننا لو أضفنا الذكاء إلى الحنان والطيبة والعزوف عن الثرثرة نكون قد وصلنا إلى حورية من الجنة ليس لها وجود على الأرض.

أمسكت ذقني بيدي مثلما يفعل المفكرون الكبار ثم أدليت بدلوي: أعتقد أن اختيار زوجة هو فن الممكن مثل السياسة بالضبط.. أنت تريدها في جمال زبيدة ثروت وعبقرية ماري كوري وحنان عزيزة حلمي ونقاء العذراء مريم، لكنك تتجاهل شيئًا مهمًّا هو: وماذا بعد أن تعثر على فتاة بهذه المواصفات النورانية؟.. أقصد ما الذي يجعلها توافق على شاب أرضي مثلك؟ شاب ينتمي إلى العالم الفاني بأخطائه وقبحه وتبريراته.. لا بد وأن من حقها في هذه الحالة أن تتطلع إلى رجل متميز يليق

بها.. على الأقل لا يكذب، وهو الشرط الذي لا يتوفر في أي رجل في حدود علمي!.. توقفت لأبلع ريقي قبل أن أضيف: هذا ما أقصده بفن الممكن.. أنت تبدأ بوضع الحد الأقصى من شروطك في الفتاة المطلوبة على الطاولة، ثم تبدأ شيئًا فشيئًا في سحب بعض طلباتك والتراجع عنها على ضوء معطيات الواقع.
قال فتحي: طبقًا لكلامك فإن كل الزيجات في الدنيا يفترض أن تكون متكافئة ما دامت تخضع لشروط فن الممكن الذي تحكي عنه؟
أمسكت بكوب الشاي ورشفت منه رشفة ثم ضغطت على الحروف: هناك حالات لا ينطبق عليها كلامي والسبب في وجود تلك الحالات هو الانبهار من جانب أحد الأطراف بالطرف الآخر، وهو ما يترتب عليه أن يسيء تقدير نفسه التي تستحق أفضل من المعروض، فيقبل بأقل مما هو مستحق له، وهذا يشبه موقف المفاوض نافد الصبر الذي يتنازل عما كان يستطيع الاحتفاظ به بسبب العجلة!
ابتسم فتحي متسائلًا: هل تقصد أن غياب الحب، والاختيار بشكل تقليدي يسمح بالحصول على صفقة أفضل مما يتيحه الحب للعاشق الولهان؟
- أعتقد هذا.
لم يستطع فتحي أن يمنع نفسه من الضحك: مَن هنا الذي يتحدث عن أصناف البقالة يا أستاذ.. أنا أم أنت؟
تلعثمت قليلًا: أنا.. أقصد.. قاطعني فتحي: اسمع يا رجل.. هل تريد الخلاصة في هذا الموضوع؟
- أكيد.
قال: كلنا سنتحرى الدقة في الاختيار وكلنا سنندم!
أطلقت ضحكة في الهواء فبادرني صاحبي: الحقيقة هي ما أقول.. سيندم من يقع في الحب لأن حبه سيضع عصابة على عينيه فلن يرى كل الصفات السيئة التي لم يخطر بباله أبدًا وجودها لدى حبيبة القلب.. وسيندم الذي اختار بالعقل لأنه بعد أن عثر على الطيّبة الحنونة التي لا ترغي سيشعر بالملل منها وسوف تتوق نفسه إلى واحدة تتسم بقدر من الجرأة تضفي الحيوية على حياته الرتيبة التي أصبح السأم هو عنوانها.. أما الذي اختار المشاكسة منذ البداية فسوف يكره الحياة ويتمنى العودة لنقطة الصفر حتى يختار واحدة صامتة!
قلت: فكرة الملل والرغبة في التغيير مفهومة ومفترضة ولا تحتاج لنباهة وهي تنتاب المرأة مثلما تنتاب الرجل، والفرق أن هامش الحركة المتاح أمام الرجل أكبر.. لكن التحدي الحقيقي هنا هو استمرار الحياة بعد أن يزول السكّر من قطعة العلكة ولا يتبقى منها سوى المطاط.
قال فتحي: انظر إلى الفتاة الجميلة الجالسة أمامنا.. نعم تلك الرقيقة صاحبة الثوب الأبيض الجالسة مع أسرتها في مواجهتنا.. إنني لو تركت نفسي إلى الانطباع الأوّلي لظننت أنني سأكون أسعد الرجال لو فزت بها.. يزكّي كلامي وجهها الحلو وملابسها المتناسقة وصوتها الخفيض، لكني بالعقل أعرف أن الاعتياد سيجعل كل ما سبق بلا قيمة بعد شهر من الاستلقاء إلى جوارها على سرير واحد.
ضحكتُ قائلًا: هل تريد القول أنه بعد أن تزول السَكْرة ويعتاد المرء على جمال زوجته لا بد من وجود أشياء أخرى تدعم قيمة الزوجة مثل التواضع والوفاء وإنكار الذات.. إلخ؟
سرح فتحي وهو يقول: المصيبة أن كل هذه الأشياء لو تواجدت بعد زوال السكرة فإنها لن تكون كافية ليستمر الرجل سعيدًا.

قلت منزعجًا: إن سيناريوهاتك المسبقة تفسد عليك الحياة وتخلق منك فيلسوفًا قبل الأوان.. خَض التجربة واستمتع وجرب السعادة، وعندما يأتي الملل ويحين أوان الفشل، ساعتها يكون لكل حادث حديث، لكن تنبؤاتك العقلانية هذه ستجعلك تخشى الاقتراب من ملاك مثل الذي يجلس أمامنا.
ضحك فتحي: هي حقًّا بارعة الحسن ناعسة النظرات، لكن من أخبرك أنها ليست حادة المزاج سيئة الطبع؟ ربما يكون هذا الملاك قد تعرض للتعنيف من الأم قبل النزول بسبب قذارة غرفته، وربما تكون قد تلقت صفعة من الأب لأنه ضبطها ترد على إشارات ابن الجيران من البلكونة.
قلت: وما المشكلة لو كانت تبادل ابن الجيران الحب؟ أوليست إنسانًا له مشاعر مثلنا؟
رد فتحي: لا توجد مشكلة سوى أنك تريد تزويجي إياها وحرمان ابن الجيران منها!
غلبني الحماس وأنا أحاول إقناعه: كل الفتيات تمر بهذا، لكن بمجرد أن تقبل بمن كان مثلك خطيبًا فإنها تتوقف عن لعب العيال وتبدأ في توجيه مشاعرها نحو زوج المستقبل.. هذا هو ما يحدث يا صديقي.
قال فتحي: المشكلة أنني أعرف أن هذا هو ما يحدث، وهذا يؤلمني لأن ابن الجيران لم يفعل معي ما يستحق عليه أن أسلبه فتاته لمجرد أنني تخرجت قبله وعندي شقة.
قلت وقد بدأت أضيق من عناده: ليكن يا أستاذ فتحي.. ما قولك في أن تكون أنت ابن الجيران الذي تغرم به الجارة الجميلة ثم تتقدم لخطبتها بعد ذلك؟
رد فتحي: ما قولك في أن تتقدم أنت لها وتعوضها عن نذالة صديقك كما يحدث في الأفلام!.. قال هذا ثم انفجر في ضحك متواصل.
هنا تخليت عن الهدوء وعلا صوتي: ماذا تريد بالضبط يا مجنون.. لقد حيرتني!
أجاب فتحي وقد غادرته الابتسامة: لا أدري.
نهضت من مكاني متوجهًا نحو الباب ولم أنس أن أتوعده قبل الخروج: لن أخرج معك مرة أخرى يا مناخوليا حتى لو عزمتني على كباب!
رد فتحي: بل ستخرج معي لأنك لن تجد من يحدثك بصدق مثلي ويستمع إلى ترهاتك بإنصات كما أفعل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سامح الأونطجي

زاملت سامح منذ السنة الأولى الابتدائية. كان بطبعه منطويًا وقدرته على التحصيل محدودة، لكنه استطاع العبور حتى الثانوية العامة ثم شحطت سفينته ووقفت به رافضة التزحزح إلى الجامعة. رسب أربعة أعوام متتالية حتى ضاق به أبوه وطرده من البيت. رفض سامح أن ينزل مع والده الترزي إلى ورشته ليتعلم صنعة أسوة بإخوته.. كان يعتقد في نفسه العبقرية ويرى أن الثانوية العامة ليست معيارًا للتفوق، ومن الممكن للمرء أن يكون بلا شهادات دون أن ينال هذا من ثقافته وقدراته. لم أكن لأعارضه في فكرته هذه عن الشهادات لولا أنني أعرف أنه لا يقرأ ولا يتثقف وأنه لا يشبه العقاد كما كان يحاول أن يوحي.. هو فقط يحصل على معلوماته عن الحياة مثل الملايين من ربات البيوت المتعلقين ببرامج سمير صبري وفريال صالح ونجوى إبراهيم!

احترنا في أمره ونحن نراه يتنقل من بيت لبيت لدى الجيران الطيبين في الحي، الذين رفضوا أن يتركوه للشارع وأشفقوا عليه من التشرد والضياع. كان يعود إلى بيت أهله في الصباح بعد أن يتأكد من نزول والده ليلوذ بحضن أمه التي كانت تطعمه وتعطيه المال من وراء ظهر الوالد الذي نفض يده من الولد الخائب كما كان يسميه.

كنا نعرف أن سامح من النوع المَوكوس المفقود فيه الأمل،لكن هذا لم يمنع استمرار انتسابه للشلة بحكم الجيرة وزمالة الدراسة، لهذا فإن وجوده في السهرات على القهوة كان أساسيًّا، وتقريبًا كان الوحيد الذي لا يتخلف أبدًا بحكم الفراغ وروقان البال. في ذلك الوقت كنا قد دخلنا الجامعة وبعضنا تخرج من مدارس الصنايع الثانوية.. وبقي سامح كما هو ساقط ثانوية عامة بلا وظيفة ولا صنعة.

عندما ماتت أمه تصدعت أركان حياته وفقد الداعم الأكبر الذي دلله ومنحه المال وداري على أخطائه. واسيناه وشددنا من أزره وطلبنا منه أن يبحث عن صنعة أو يذهب إلى ورشة أبيه، لكنه فيما يبدو لم يكن على استعداد للشغل والتعب، وظن أن الحياة قد تستمر سخية معه بلا ثمن!

لاحظنا بعد وفاة والدته أنه ترك لحيته تنمو، وتصورنا أن هذا من أثر الحزن والإهمال الذي يصيب من فقد عزيزًا، لكن بعد فترة وجدنا أنه صار صاحب لحية كثيفة. لا بأس.. ذقنه ليست سيئة وهي مكسية بالشعر، على الأقل ساعدته على اكتساب سَمْت الفلاسفة المشغولين بحل مشاكل الكون!

بعد انقطاع المصروف الذي كانت تعطيه له أمه ضاقت أحواله لكنه كان لا يزال يجد المأوى في مخزن مملوك للحاج صالح، وهو رجل طيب ذو ثراء من سكان الحي، يعمل بالتجارة وقد منح سامح مفتاحًا لأحد مخازنه ليبيت فيه من باب الصدقة. في البداية كنا نقرضه المال الذي يطلبه ونحن نعلم أنه لن يرده، لكن بعد فترة لم يكن ممكنًا أن يستمر الحال هكذا، فلا نحن أثرياء لنستمر في الإنفاق عليه ولا هو عنده دم ليتوقف عن طلب المال!

لكن المفاجأة الكبرى حدثت عندما تحدث إلينا في المقهى ذات ليلة وألقى بالقنبلة: لقد اقتنعت بالإسلام يا أصدقائي وقررت أن أصير مسلمًا!.. كانت قنبلة فعلًا لأننا بفعل التسامح الحقيقي الذي كنا نحياه نسينا أنه مسيحي، وتذكرنا فقط أنه صديقنا الذي نعرفه منذ نعومة أظفارنا.

تريد أن تترك دينك وتصير مسلمًا.. لماذا؟.. قال: لقد قرأت عن الإسلام واقتنعت به. سألناه: هل استغل الحاج صالح ضائقتك المالية ودعاك إلى الإسلام؟ أجاب: أنا لا أرى الحاج صالح إلا لمامًا وهو لا علاقة له بموقفي هذا، إنما هي رغبة ذاتية مرجعها الاقتناع والإيمان.

كنا نعرف أنه كذاب فلا هو يقرأ أو يتفكر أو يعرف القرآن، وهو لا يتحرك من على القهوة كل ليلة إلا بعد أن تغلق قرب الفجر ويكون وقتها منهكًا من لعب الدومينو طول الليل.. فأين بحق الشياطين عساه يكون قد عرف الإسلام؟

الغريب في أمر سامح أن مسيحيته لم تقف عائقًا قط دون أن يجد الأصدقاء ويجد المأوى، فما الذي دعاه لهذا المنعطف الحاد والعجيب؟ البعض من أصدقائنا أرجع الأمر إلى الاكتئاب وقال إن هذه أعراض اكتئابية تدفع صاحبها للتخبط والمقامرة.

عندما لم نصل إلى تفسير قلنا له: الله معك.. أنت بالنسبة لنا نفس العيّل الفاشل الذي نصاحبه من زمان سواء كنت مسلمًا أو مسيحيًا!.. بدا عليه الإحباط من موقفنا هذا ويبدو أن الخيال صور له أننا سنحمله على الأعناق فرحين بدخوله الإسلام، وفي الخطوة التالية تنفتح أمامه مغارة على بابا عندما نقوم ومعنا الأهل والأحباب بالمساندة المالية للمجاهد الذي ترك دين الآباء وأتى إلينا!.. كنا نضحك بشدة بينما نستعرض هذا السيناريو الذي رجحنا أن سامح قد اعتمده بينه وبين نفسه.

ما لبث الخبر أن انتشر بالحي عن سامح ابن الأسطى ملاك الترزي الذي اعتنق الإسلام. أخذت طلائع القساوسة تترى إلى مخزن الحاج صالح تبحث عنه لترده إلى صوابه، خصوصًا وأن منطقتنا (الظاهر) تموج بالكنائس حتى إن أحد شوارعها اسمه بين الكنائس.. لم يستمع إلى نصح الكهنة وأصر على موقفه. في الوقت نفسه سمع شباب الجماعات الإسلامية بالأمر فعّدوا سامحًا أحد تجليات نصرة دين الله وأقبلوا عليه فأخذوه معهم وجعلوه يترك مخزن الحاج صالح وأسكنوه مع طلبة أزهريين وافدين من الأرياف يقطنون بشقة في السكاكيني.

غاب سامح بضعة أيام ثم عاد لنا على القهوة وأخبرنا عن حياته الجديدة مع الإخوة المؤمنين وكيف أنه سعيد بالحياة معهم. لا أدري لماذا لم أصدقه ولم أظن أنه سعيد بحياته هذه لكني لم أجادله. في نهاية السهرة انتحى بي جانبًا وطلب مني أن أخبر والدي بأمر إسلامه وأطلب منه أن يساعده ببعض المال ليعينه على مشواره الإيماني الجديد!.. عندها لم أجد مفرًّا من إطلاق أصوات إسكندراني في وجهه لأنني لم أفهم كيف تعينه أموال أبي على مشواره الإيماني. قال لي متأثرًا: إن الإخوة بالجماعة يطعمونه ويتكفلون بإيوائه لكنهم لا يمنحونه المال ليشتري السجائر ويجلس على القهوة كما اعتاد، فضلًا عن أنهم يرغمونه على الاستيقاظ لأداء صلاة الفجر كل ليلة وهو الأمر الذي أرهقه كثيرًا!

لم أتمالك نفسي من الضحك بعد أن تبدّت نذالته بلا غموض، ولم أدر كيف تصور ابن الجزمة أنني يمكن أن أساعده في النصب على أبي!.. لقد تأكد لي أن الأخ اخترع حكاية الإسلام لأنه تصور أننا سنعامله معاملة خاصة، وأننا سنغدق عليه بالمال لتثبيته على الإيمان وربما نعتبره من المؤلفة قلوبهم الذين يأخذون حصة من الزكاة تساعدهم على المضي في الإسلام وتعوضهم عما فقدوه بتركهم أديانهم القديمة!

بعدها عرفت من الأصدقاء أنه طلب منهم جميعًا الطلب نفسه، ثم سرت في الحي حكاية الواد سامح الذي أسلم ويريد الثمن.

من الطبيعي أنه لم يصمد مع شباب الجماعات الإسلامية الذين ظنوه جنديًّا جديدًا نذر نفسه للإسلام، فإذا به أونطجي يحلم بالمال وبالحياة المجانية على قفا سائر الخلق كما اعتاد طول عمره. تركهم وعاد إلى الكنيسة يبدي الندم ويطلب الصفح. قبلوه لكن لم يفتحوا له حنفية الفلوس وظل أقصى ما يحصل عليه هو النومة واللقمة.

بعد مدة عرفنا أنه ترك الحي وتزوج بفتاة حامل أراد أهلها أن يستروها وعاش مع أهلها في بيتهم!

بعد سنوات فوجئنا به وقد أصبح صاحب محل أدوات صحية في الفجالة، وانتشرت الأخبار بأنه تعرف على امرأة عجوز واحتال عليها وعاش معها قصة حب مزعومة، ثم جردها من فلوسها وجعلها تكتب له المحل. في ذلك الوقت حدث أنني قابلته بالصدفة في شرم الشيخ وكانت المرأة العجوز بصحبته وقد منحته سيارتها. اضطر أن يقدمها لي: مدام فلانة. سلمت على مدام فلانة وشعرت نحوها بالإشفاق رغم أنها سعت إليه لا شك بإرادتها.

من وقت لآخر أمر عليه بالمحل فأجده كما هو.. نفس النصاب الشاب قد أصبح نصابًا كبيرًا. أشتمه وأضاحكه وأذكّره بكل الوساخات التي عاش عمره يرتكبها، فلا يغضب مني وإنما يرجوني أن أسأل عنه بحق الأيام الخوالي.. لا أجد نفسي رافضًا له أو كارهًا أو مستاءً فهو في كل الأحوال.. صديقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرويد

كانت الامتحانات بالجامعة قد بدأت وأصبح الجميع مشغولًا، فتلاشت أو كادت السهرات والجلسات على القهوة والوقفات على الناصية، ولم أعد أشاهد أحدًا من أفراد الشلة إلا مهرولًا لشراء السجاير أو قاصدًا الجامع للصلاة، وبالمناسبة زبائن الجامع من زمان يزيدون وقت الامتحانات.
لم يكن حالي يفترق عن الآخرين، فالذي فات ويتعين تحصيله كثير بالنسبة لطالب ظل طوال السنة جالسًا على الكافيتيريا مفوَّتا أغلب المحاضرات. لم يترتب على هذا ضعف تحصيل المادة فقط وإنما ضياع درجات أعمال السنة في المواد التي بها أعمال سنة، وهذا يعني أن الكفاح من أجل المرور لا التفوق أصبح محتدمًا.
من حسنات الامتحانات الجامعية أنها لم تكن تتم كل يوم وإنما مرتان في الأسبوع، وأستطيع أن أقرر بمنتهى الصدق أن نجاحي في السنوات الأربع إنما يعود للأيام الثلاثة الفاصلة بين كل مادة ومادة.. ففي هذه الأيام كنت أركز تفكيري في مذاكرة المفيد واستبعاد ما لا يفيد، وكنت أتبع إستراتيجية المقامر المحترف فأحذف نصف المقرر وأذاكر نصفه فقط معتمدًا على أن هناك أسئلة اختياري، بمعنى أن الأستاذ يضع ستة أسئلة مثلًا مطلوب إجابة ثلاثة منها.. في هذه الحالة كنت أجد نفسي على معرفة بإجابة ثلاثة فقط من الستة وأحيانًا اثنين، وقد كان هذا كافيًا للنجاح وأحيانًا للحصول على جيد جدًّا في المادة.. ولا أنسى وقع هذا عند ظهور النتيجة عن زملائنا من الطلبة المحترمين الذين ذاكروا المقرر كله وأجابوا عن الأسئلة الستة!
المهم أنه في ذروة الامتحانات وكنا قد أنهينا خمس مواد وباق لنا مثلها تلقيت زيارة على غير انتظار من صديقي «فريد قمحة» الذي يسكن بالشارع المجاور. اختار فريد الدراسة بقسم علم النفس بكلية الآداب، لهذا أطلقنا عليه فرويد بدلًا من فريد!
كان فريد مكروبًا وتبدو عليه أمارات التوتر والقلق الشديد.
مالك يا فرويد؟.. سألته.
أجاب: أنا ضعت والسنة راحت مني.
قلت له: يا رجل كف عن الوسوسة وتفاءل، فقد تفاجئك الأقدار بما لم تكن تتوقعه.
قال: أقدار إيه وبتاع إيه.. أنا سقطت سقوطًا مريعًا في مادتين من المواد الخمسة التي مضت.. وإذا ضاعت مني مادة الإنجليزي فقد تأكد رسوبي وإعادتي للسنة.
كان فريد قد رسب في سنة أولى فعادها ثم صعد إلى سنة ثانية بمعجزة، والآن هو مهدد بأن يعيد سنة ثانية.
قلت أعزيه: لا بأس يا سيد فرويد، فكل عظماء التاريخ قد رسبوا مرة واثنين وثلاث.. عندك جاليليو مثلًا ومارتن لوثر وكارلوس ألبرتو وبيكينباور ويوسف وهبي و..
قطع كلامي محتدًّا: حرام عليك يا رجل.. أتسخر من خيبتي؟
قلت: أسخر إيه بس.. أنا أحاول إخراجك من حالة الكآبة والنكد.. ثم ما الذي يجعلك واثقًا من الرسوب؟.. عد إلى البيت وذاكر وإن شاء الله كل المسائل تروق وتحلو!
قال في يأس: من الواضح أنك لا تفهمني.

قلت في حيرة: إنني بالفعل لا أفهمك.. إذا كان هناك أمل في النجاح عد لبيتك وذاكر، وإذا لم يكن هناك أمل انزل من فورك وادخل سينما، ثم اقض بقية الليلة على القهوة والعب عشرتين طاولة.. وإذا كانت البت مانجا ما زالت صاحية، خذها وتعامل معها واملأ الليلة أنسًا وبهجة.. هكذا هي الأمور كما أراها، إنما البكاء والولولة لا تليق بك.
نظر نحوي في عتاب صامت ويبدو أن ذكر البت مانجا قد نكد عليه.. كان فريد قد تم ضبطه فوق سطوح بيتهم في عشة الفراخ مع مانجا بائعة الخضار في فضيحة كبرى مضى عليها عام.
قال فرويد: لقد أتيتك طالبًا خدمة العمر التي لن أنساها لك ما حييت.
قلت متوجسًا: خير يا فيلسوف؟
تنحنح قليلًا ثم فاجأني: أريدك أن تدخل امتحان الإنجليزي بدلًا مني وأنا واثق أنك ستجاوب على الأسئلة بسهولة فمستواك معروف.
قلت وأنا أنظر إليه في ذهول: وهل المشكلة في هذا الموضوع تتعلق بمستواي في الإنجليزي؟.. ماذا عن اللجنة والمراقبين والدكاترة والمعيدين والبوليس والنيابة وضياع المستقبل لو اكتُشفت الحكاية؟
قال محاولًا أن يطمئنني: لا تقلق.. الأعداد عندنا مهولة في آداب عين شمس.. لسنا مثلكم في كلية الإعلام حيث الدفعة قليلة وكلكم تعرفون بعضكم البعض.
ظللت أنظر إليه وأنا لا أصدق ما يطلبه مني، ومن جانبه لم يتوان عن الضغط والإلحاح ومحاولة تهوين الأمر.
قال: نحن نمتحن في خيام كبيرة والدنيا سويقة فلا أحد يعرف أحدًا، والمراقبون كلهم موظفون من خارج الجامعة.. كل ما سيطلبونه منك قبل بدء توزيع الأوراق هو أن تريهم كارنيه الكلية.
لم أنبس ببنت شفة فأكمل: وأنا شخصيًّا ليس معي كارنيه وإنما أقدم لهم في كل مرة الإيصال الدال على دفع المصروفات، ولم يحدث أن اعترض أحد.
الغريب أنني بعد أن تجاوزت الصدمة التي أحدثها طلبه المفاجئ ومع تقليب الأمر في الدماغ وجدت كلامه معقولًا.. نحن فعلًا نعيش في مولد وصاحبه غايب، ولهذا فإن احتمالات اكتشاف الأمر تكاد تكون معدومة.
ومع استمراره في الطرق على الحديد بعدما لمس هدوئي وأنا أستمع إليه، وجدت معارضتي للفكرة تتلاشى ورغبتي في مساعدته تتقدم على ما سواها.. وقتها حدثت نفسي بأن الصديق الذي لا يخاطر من أجل صديقه ليس جديرًا بأي شيء، والخدمات التافهة التي يقدمها الناس لبعضهم ليست دليلًا على المحبة ولا على صلابة العلاقة.
سألته: في أي يوم امتحانك؟
أجاب: غدًا؟
في أي ساعة؟
قال: اطمئن.. امتحاناتي كلها تبدأ الساعة الثالثة عصرًا بعد كل امتحانات العباد.
أطلقت ضحكة عريضة وأنا أصيح: آه يا ابن الفقرية.. مافيش نصيب، فامتحاني يبدأ غدًا في نفس التوقيت.. ثم أضفت: والله كنت أنوي أن أغامر وأفعلها لأجلك، لكن الآن لا أستطيع يا سيد فرويد.. اذهب وابحث عن مغامر مجنون غيري.
أحسست به يتهاوى معنويًّا بعد الجهد الذي بذله في إقناعي. سألته: أما كان من الأجدى أن تنفق كل هذا الوقت في مراجعة المادة؟

قال: أي مراجعة يا عزيزي.. أنا لا أفقه شيئًا في اللغة الإنجليزية، والغش وحده هو صاحب الفضل في مروري بالكاد طوال السنوات السابقة.
تساءلت في دهشة: ولماذا لا تعتمد على الغش هذه المرة أيضًا؟ قال: الأمر لا يحتمل المغامرة بعد رسوبي في مادتين.
كنت أعلم أن الرسوب في حد ذاته لا يقلقه، لكن ما يشغله حقًّا هو أن يرسب هو وتنجح فتاته مديحة التي تزامله في نفس القسم ثم تتجاوزه، وهو الشيء الذي قد يعرقل ارتباطهما في المستقبل.
ما الحل يا وزير؟.. تساءل فريد وقد نالت خيبة الأمل من نبرات صوته فخرج كنقيق ضفدع حزين.
قلت له: ماذا عن إخوتك وأقاربك؟
قال: أخويا مدحت عمره ٣٥ سنة وهو يبدو برأسه الكبير وصلعته أقرب لوكيل وزارة، أما شريف فأنا الذي أذاكر له إنجليزي!
قلت حائرًا: وماذا عن شلة القهوة؟ رد في ضيق: لا أريد لأحد منهم أن يعرف بالأمر حتى لا يلوكونه مثل اللبانة طول العمر، ولا تنس أنهم بالنسبة لي مجرد معارف وليسوا أصدقاء بالمعنى الحقيقي للكلمة.. أنا لا أثق في أحد سواك أنت ثم مديحة.
إذن دع مديحة تمتحن بدلًا منك.
لم يستجب للمزاح وبدا همه حقيقيًّا ثقيلًا.
قلت له: هناك شخص أعرفه اسمه نادر كان زميلًا لي أيام ثانوي ومستواه في الإنجليزي ممتاز، وهو مغامر بطبعه وله باع في كل أنواع الخروقات والانتهاكات.. لكني لا أدري هل يوافق أم لا؟
قال: هاته.. أو دعنا نذهب إليه.
أخذت فريد ونزلت إلى ميدان الجيش، وقد صدق حدسي حيث وجدت نادر الصايع يجلس على القهوة كما تركته عليها منذ ثلاث سنوات. بعد الترحاب والشاي والشيشة دخلت في الموضوع وحكيت له الموضوع بكل تفاصيله.
ضحك وسعل حتى كادت عيناه تخرجان من شدة الانفعال.. وعندما هدأ سألني: أنت كل مجايبك من هذا النوع؟ قلت: أي نوع؟ قال: النوع الكَحول!.. ثم التفت إلى فريد: لا مؤاخذة يا باشمهندس لا أقصد شيء، لكن الواد ده مصيبة.. لا يأتي هنا إلا ومعه شخصية تحفة!
نظرت إليه في غضب فقال: هل تذكر عندما دخلت عليّ وفي يدك الواد ألبير ابن أم ألبير منذ عدة سنوات؟
قلت: الله يخرب بيتك.. لقد أضعت ألبير وأمه برعونتك وطيشك والله وحده يعلم أين هما الآن.
قام نادر بتنحية الشيشة جانبًا وسأل فريد في جدية: كم ستدفع في العملية؟
نظر فريد نحوي في فزع متسائلا: عملية؟! قلت: ما الحكاية يا نادر؟.. هذه خدمة أطلبها منك.
قال: وأنا رقبتي سدادة.. لكن لا بد من قرشين لتحفيزي على حُسن الأداء.
كان نادر قد رسب في الثانوية عدة مرات ثم سافر إلى هولندا عند أخيه وعاد ليجلس على القهوة.. والغريب أنه كان يسقط في معظم المواد لكن ينجح في الإنجليزي والفرنساوي بسهولة!
نظرت إلى فريد فمال نحوي هامسًا: ألا يوجد بين معارفك شخص آخر غير هذا؟
همست له بدوري: عندي أصدقاء مهذبون وأولاد ناس لكن أحدًا منهم لن يقبل ارتكاب جريمة إكرامًا لخاطرك أو حتى خاطري.
بنفس الصوت الهامس قال فريد: أستطيع أن أحضر عشرين جنيهًا.

علا صوت نادر: متى تنتهي الهمسات وأسمع صوتكما؟ نقلت له استعداد فريد لدفع عشرين جنيها.
نظر بغضب ثم علا صوته: أقل من خمسين جنيها لن أتحرك.
قام فريد واقفًا فوقفت بدوري.. أمسكني من ذراعي ومشى بي خطوتين قبل أن يقول في عزم وإصرار: سأحضر الخمسين جنيه مهما كلفني الأمر.
قلت له: أنا فعلت ما أستطيع ولو كان معي فلوس ما تأخرت عنك.. الآن أنت تقرر لنفسك ما ينفعك.
بعد انصراف فريد واجهت نادر قائلًا: ماذا دهاك يا حيوان؟ متى تتصرف برجولة وتكف عن النذالة وانتهاز الفرص؟
قطب ما بين حاجبيه وهو يتفحصني في عجب: ما أعجب شأنك يا ابن الناس.. هل الرجولة أن أدخل الامتحان بدلًا من عيّل خائب لا أعرفه؟
قلت: لا أقصد هذا.. قصدي كان يجب أن تقبل العشرين جنيه إكرامًا لخاطري حتى لا تورطه في عمل أحمق من أجل تدبير الخمسين جنيه.
نظر نادر نحوي وقال جادًا: لست أتصرف بنذالة، ولو كنت كذلك لأخذت الفلوس وأعطيته بُمبة، لكنك تعرف أنني لن أفعل هذا.. إنني يا صديقي عاطل بلا عمل ولا شهادة ولا أدري ماذا يكون مستقبلي.. حاليًا أخطط من أجل الهجرة لأمريكا، وإلى أن يحين هذا لا بد من تدبير مصاريفي اليومية من عمليات صغيرة كهذه.
أقبل فريد فمنحه الفلوس واتفقا على اللقاء في اليوم التالي ليصحبه إلى الجامعة.
عدت إلى البيت لاستكمال المراجعة والحصول على قسط من الراحة لأجل امتحاني في الغد.
على باب جامعة عين شمس وقف فريد مع أخيه شريف في انتظار خروج الطلبة بعد أدائهم الامتحان.. وها هي الطلائع تهل بعد انقضاء نصف الوقت.
أقبلت مديحة فأبصرت فريد يقف منتظرًا.. كانت مديحة هي الشخص الوحيد الذي ائتمنه فريد على السر وقد حكى لها الموضوع باختصار قبل بدء الامتحان. كان وجهها ممتقعًا بشدة وهي تأخذ فريد وتبتعد به مهرولة بعيدًا عن المكان. ظلت صامتة إلى أن وصل ثلاثتهم إلى ميدان عبده باشا حيث أجهشت بالبكاء وهي تحكي:
صاحبك جلس مكانك في اللجنة وكنت أراه من بعيد.. بدأ الامتحان وسارت الأمور على ما يرام. لم يشك أحد في صاحبك وهو يقدم لهم وصل المصروفات بدلًا من كارنيه الكلية. انهمكنا في الحل، لكن بعد دقائق سمعنا صوتًا من الناحية الأخرى لأحد المراقبين ينهر صاحبك ويمنعه من تغشيش الآخرين.. الأخ نسي مهمته وأخذ يساعد طلبة الانتساب المجاورين له مما أدى إلى إنذاره. تكرر الأمر أكثر من مرة والأفندي لا يرتدع. في النهاية قرروا سحب ورقته وإنهاء امتحانه، لكنه بدلًا من أن ينسحب ويخرج في هدوء علا صوته فما كان منهم إلا أن أحضروا أستاذ المادة الذي قام بتعنيف صاحبك بصوت عال سمعناه جميعًا.. لم يقم بتعنيفه فقط، لكن بصراحة مسح بكرامته الأرض. صاحبك بدلًا من أن يخرس ويترك العاصفة تمر قام بالتطاول على الدكتور وشتمه.. هاجت اللجنة وتم استدعاء أمن الجامعة. أخذوه إلى حجرتهم وعرفنا أنهم قاموا بتفتيشه وعثروا على بطاقته الشخصية واكتشفوا أنه دخل الامتحان بدلًا منك.
كل هذا عرفته من شريف شقيق فريد.. حكاه لي وهو يخبرني أن أخاه مختفٍ بمعرفة الأسرة في مكان لم يفصح عنه.

بعد عدة شهور عرفت أن فريد يعيش في بيروت وقد استقر هناك والتحق بجامعة القديس يوسف، وأن الأهل يزورونه حتى ينقضي أجل التهمة.. ومن الطبيعي أنها انقضت بعد سنوات فعاد وتزوج مديحة وحقق حلمه القديم، لكن صداقتي به لم تعد كما كانت بعد عودته لمصر.
أما نادر فقد قابلته بعد ذلك بسنوات في أمريكا التي هاجر إليها واستقر وتزوج وأنجب أطفالًا.
لم يخبرني كيف هرب من البوليس بعد القبض عليه في الجامعة ولا كيف استطاع السفر، وأنا من جانبي لم ألح في الحصول على معلومات بهذا الشأن، لكن ما أردت معرفته حقًّا هو كيف تصرف بهذا النزق فقام بتغشيش الطلبة، بينما كان في مهمة دقيقة تقتضي الستر والخرس؟.. هذا هو السؤال الذي وجهته له وكنا قد أصبحنا رجالًا بعد مرور سنوات طويلة على هذا الحدث.
قال بنفس لهجته القديمة: أردت أن أنشر بعض الخير بالمجان لأن ضميري أنّبني بعد أن لهفت الخمسين جنيه من فريد!
لم أسع للقائه بعد ذلك.. لا أنكر أنني أحبه فهو شخص همايوني خفيف الدم، لكن كل من يقترب منه يبوء بالخسران والندامة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمود.. وعدّة التلفون

لم يكن الحب بين الشباب في مطلع الثمانينيات سهلًا ميسورًا كما هو الآن لأن وسائل التواصل كانت محدودة. بالطبع لم يكن الأمر مثلما كان عليه في الثلاثينيات والأربعينيات عندما كان ظهور الأنثى في الجامعة حدثًا جللًا ترتج له قاعات المحاضرات.

والحقيقة أن منحنى التطور في العلاقة بين الشاب والفتاة قد تأرجح جيئة وذهابًا طيلة النصف الثاني من القرن العشرين وصولًا لوقتنا الحاضر، فعلى سبيل المثال فإن ثورة الشباب في أوروبا في الستينيات وحركات الرفض التي ظهرت مثل جماعات الهيبز، فضلًا عن الموضات والأزياء الغريبة التي انتشرت ووصلت إلى بلادنا.. كل هذا كان له أثر على تليين العلاقات منذ مطلع الستينيات تأثرًا بالغرب، لكن سرعان ما خمد أثر هذه الحركات في بلادنا وبدأ المد الوهابي يتسلل إلى المجتمع المصري ويظهر تأثيره في دفع المجتمع أكثر نحو المحافظة.. صحيح أن هذا المد ما زالت رياحه تعبث بمجتمعنا، لكن قوة العولمة وظهور وسائل التواصل الاجتماعي أحدثت تغييرًا نوعيًّا في المجتمع رغم أنف المتشددين!

لكن حديثنا الآن عن ذلك الوقت من بداية الثمانينيات عندما كانت هناك مشكلات قد لا يصدقها الشباب إذا حكيت عنها ومنها أن معظم بيوتنا لم يكن بها تلفونات..و التلفون كما هو معلوم بالنسبة للشباب يتكفل بقطع مسافات بعيدة في العلاقة ويعفي العيون من التلاقي فتنفك الألسن، ثم يقوم اللقاء المباشر بالباقي بعد أن يكون الطرفان قد سرحا ومرح بهما الخيال من وراء الستار.

كان صديقي وجاري محمود الحلو يعيش علاقة حب قلقة مع إيمان زميلته بالجامعة. مصدر القلق أنها لم تُرِحْه أبدًا، كما لم تجعله يقطع الأمل، وكان أشد ما يغضبه هو وجود منافس له هو عزت زميلهما الذي كان اهتمامه بإيمان غير خاف.

في الحقيقة كانت إيمان تحرص على البقاء وسط الشلة دائمًا وهو ما جعل مهمة محمود في مصارحتها بحقيقة مشاعره غير سهلة، لكن كان يعزيه أن عزت أيضًا لم يكن ينفرد بها في الجامعة.

لكن الخطير في الأمر هو أن عزت كان يحوز ميزة تنافسية غير موجودة لدى محمود هي وجود خط تلفون في بيتهم، وقد مكنته هذه الميزة من أن ينفرد بإيمان كل ليلة ساعة أو أكثر في دردشة يعلم الله ماذا كان يدور فيها، ويبدو أن عزت كان يُلقي بشذرات أمام محمود بطريقة تبدو كأنها عفوية عن مكالماته مع إيمان، وهو الأمر الذي أحفظ محمود وجعل أعصابه تغلي.

لم أكن أتردد في مواجهة محمود بأنه يعيش داخل فيلم عربي وبالتحديد داخل فيلم «أبي فوق الشجرة» عندما كان عبد الحليم يشكو من أنه لا يعرف كيف ينفرد بحبيبته ميرفت أمين ليبثها حبه وأشواقه بسبب تفضيلها التواجد الدائم وسط الشلة. ورغم رفضه لهذا التفسير واستنكاره له إلا أنه كان يتساءل ضاحكًا: هل يعني هذا أن الأقدار ستكافئني بنادية لطفي أو راقصة جميلة في مستواها؟

لقد جعلتني الظروف شاهدًا على محاولات محمود التواصل مع حبيبة القلب عن طريق التلفون العمومي بكشك السجائر الكائن على ناصية شارع حبيب شلبي.. كنت أرثي لحاله وهو يبدأ المكالمة بصوت هامس وكأنه بهذا الهمس يحجب صوت الترام الذي يمر في الشارع وصوت صاحب الكشك وهو يحاسب زبونًا أو صوت مشاجرة بين التلاميذ أو أي أصوات كانت تعلو على همسات صديقي العاشق. كان يطلب مني أن أذهب معه وهو يحادثها وكأنه يُشهدني على ملاوعتها له أو كأنه يستقوى

بي على صاحب الكشك الذي كان يكسب كثيرًا من مكالمات العشاق ولا يكف في الوقت نفسه عن التندر عليهم بصوت عال أثناء إجرائهم المكالمات!
لم يكن يغيظ محمود قدر قيام صابر اللومانجي صاحب الكشك بالتلويح له بأن المكالمة الأولى انتهت فهل يريد مكالمة ثانية، ثم الإشارة إلى أن المكالمة الثانية انتهت فهل يريد مكالمة ثالثة؟.. يفعل هذا ببجاحة وتنطّع، بينما محمود منهمك في الحديث.. يفعله على الرغم من أن صديقي قد طلب منه بوضوح قبل المكالمة ألا يقاطعه وسيعطيه ما يطلب، لكن يبدو أن شخصية صابر الحقير لم تكن تقبل سوى التصرف بوقاحة! كانت تدخلات صابر بهذه الصورة تنهك محمود عصبيًّا وهو الذي يحاول أن يجعل الأخت إيمان لا تشعر بأنه يجري المكالمة من الشارع!
حالة الغضب والحيرة التي اعتدت أن أرى محمود عليها بعد هذه المكالمات، وحكاياته عما تفعله به إيمان التي لا تريد أن تمنحه ما يطمئنه، ولا تريد في الوقت نفسه أن تجعله يقطع الأمل ويتركها، كانت تجعلني مشفقًا عليه. كنت أطلب منه أن يترفق بنفسه ولا يضغط عليها.. على سبيل المثال: ما الذي يجعلك يا حاج محمود ترتعد من فكرة أن تعرف حبيبة القلب أنك تتحدث من الشارع؟.. وهل هذا الأمر مما يمكن إخفاؤه بينما أصوات الشخر المتبادل وسب الدين تتناثر من أصوات المارة من حولك؟.. ليس ذنبك أن الحكومة لم تقم بإدخال خط التلفون إلى بيتكم بعد مضي عشر سنوات على تقديم والدك للطلب في سنترال رمسيس..فبالله عليك لا تكن حساسًا إلى هذا الحد.. ثم الأهم يا أبا حنفي لماذا لا تنسى التلفون وتنسى عزت وتتوقف عن محاولة منافسة مكالماته، ثم تذهب إليها في الكلية مباشرة وتأخذها من يدها وتنتحي بها، ثم تحدثها كما تشاء وجهًا لوجه وتعرف منها على نحو صريح موقفها منك ومشاعرها نحوك. كل هذا كنت أقوله لمحمود، لكني شعرت من إجاباته أنه يخشى أن تكون إيمان غير مستعدة بالشكل الكافي لاستقبال مشاعره ويكون ضغطه عليها سببًا في إنتهاء العلاقة قبل أن تبتدئ. كان يريد أن يعطيها وقتًا كافيًا، ولم تغادره ثقته بأن حبه لها سيستفز مشاعرها ويحركها في وقت من الأوقات.. فقط كل ما يحتاجه هو سكون الليل مع عدة تلفون!
إذا كان على التلفون يا سي محمود.. بسيطة. أخذته من يده وذهبت به ذات مساء إلى صديقي نجم. كان نجم يعرف محمود من المنطقة لكنهما لم يكونا أصدقاء. بعد أن قام نجم بعمل الشاي طلبت منه أن يحضر التلفون لأن محمود يريد إجراء مكالمة غرامية عاجلة. نظر محمود نحوي في عتاب فلم أحفل به ومضيت: وهات لنا الشاي في البلكونة لنترك محمود على راحته.
تركنا الغرفة وجلسنا في البلكونة وكنا نرى من خلف الزجاج محمود يرغي ويزبد ثم يروق ويصفو، يعلو صوته بالحديث ثم يخفت ويستحيل همسًا، يبتسم ثم يعبس، يضحك ثم يبتئس. رأيناه يخلع نعليه ثم يصعد بقدميه على الكنبة ويستلقي كأنه عبد الحليم يحادث لبنى عبد العزيز، عندما كان يقول لها أغلقي الخط فتقول له: أغلق أنت أولًا، ثم يكتشفان أن الخط لا يزال مفتوحًا وأن أيًّا منهما لم يطاوعه قلبه على وضع السماعة.
سألني نجم ونحن نحتسي الشاي: إيه العبارة؟
قلت له: لا شأن لك.. هذا هو الحب في أعنف صوره.. هذا الرجل محموم بالحب المتوهَم وأنا أريده أن يصل بالحدوتة إلى منتهاها.
عندما خرج معي محمود إلى الشارع كان يطير فوق الأرض ولا يمشي عليها.. للمرة الأولى منذ تعلق بإيمان أراه ضاحكًا سعيدًا. نظر نحوي وعيناه تنطقان بالامتنان: ألم أقل لك.. لم يكن ينقصني

سوى تلفون وبعض الهدوء والخصوصية، وعندما توفر هذا قلت لها وقالت لي.. بُحت لها وباحت لي.
سألته في استرابة: هل قالت لك أنها تحبك؟.
رد قائلًا: لم تقلها صريحة فأنت تعرف الفتيات، لكنها كانت سعيدة عندما أخبرتها عن مشاعري وأسمعتها بعض الأشعار التي كتبتها لها.
لم تعجبني إجابته لكني لم أشأ أن أنكد عليه بتحليلات لا يقوى على سماعها. بعد يومين أتاني مهمومًا فسألته عما حدث. قال: لا أدري.. إنني ألقاها في الجامعة فتتصرف وكأن لا شيء يربطها بي.. كلام عادي وسط الشلة.
قلت: وهل تتوقع أن تغرقك بالأحضان والقبلات عندما تراك في الكلية؟ أجاب: لا طبعًا، لكني كنت أتوقع منها قدرًا أكبر من الاهتمام. قال هذا ثم أضاف: يبدو أن المسألة تقتضي مكالمة أخرى عند صاحبك نجم.
ضحكت رغمًا عني وأخبرته بأنه يعرف الطريق إلى بيت نجم، أما أنا فقد اكتفيت من هذا الفيلم.
خرج من عندي غاضبًا وذهب إلى نجم وحده وهناك أجرى المكالمة التي كان يأمل فيها. أخبرني نجم فيما بعد أن صاحبي قد خرج من عنده وهو واجم، مكفهر الوجه على العكس من المرة السابقة التي كان فيها يزقزق مثل العصافير. أدركت أن الأمور لم تجر هذه المرة على نحو طيب وأن الحب الذي تصوره قد استقر بينهما كان لا يزال يتأرجح!
مضى أسبوع لم يظهر فيه محمود فأملت أن تكون أموره مع المحبوب قد سارت على ما يرام، لأنني اعتدت أنه يظهر فقط عند المشاكل، أو لعله مهموم لكن يستحِي أن يريني نفسه بعد أن أخبرته أنني انتهيت من هذا الموضوع. دفعني القلق عليه إلى زيارته في بيت أبيه وإخراجه لنجلس على القهوة.
- ما الأخبار يا أبو حنفي؟.. سألته بعد أن جلسنا على القهوة وطلبنا شايًا بالنعناع.
- لا أعرف ماذا أقول لك.. لم يكذب من قال إن المرأة لغز لا يمكن فهمه ولا يسهل سبر أغواره.. إنها تكون رقيقة كالنسمة في وقت، وفي وقت آخر تكون هوجاء كالعاصفة.. لم أعد أعرف كيف أرضيها..لقد كنت أظن أن المشكلة تكمن في غياب التلفون وعدم وجوده تحت يدي، لكن اتضح أن التلفون مثلما هو قادر على نقل المشاعر الرومانسية الحالمة قادر أيضًا على نقل الكلام القاسي وحمْل نوبات الغضب.
قلت له: اسمع يا محمود..لن أكذب عليك..الرجل الذي اخترع حكاية أن المرأة لغز غير مفهوم هو رجل نصاب.
قال: ماذا؟
قلت: رجل نصاب وخرونج أيضًا، وهذه الأقوال لا يتمسك بها سوى الذين يحبون من طرف واحد، أما عندما يكون الحب متبادلًا ومن الجانبين فإن الرجل لا يتحدث أبدًا عن غموض المرأة أو عن تغيرها وتبدلها معه..بصراحة يا صاحبي الرجل في هذه الحالة لا يريد أن يواجه نفسه بالحقيقة الواضحة وهي أن هذه المرأة لا تحبه.. هكذا ببساطة.. إن الست إيمان صاحبتك لا يضيرها اهتمامك بها، بالعكس إنه يرضي غرورها ويروي شوقها للمعجبين، ومن الواضح أيضًا أنها لا تحب غريمك عزت لكن تتسلى بكما معًا، ويمكن تفسير لطفها معك في بعض الأحيان وقسوتها عليك في أحيان أخرى بأن اللطف يكون وهي تسلي نفسها، بينما الغضب يكون عند لومها نفسها على التسلّي بالناس!
كان محمود يستمع إلى كلامي دون أن ينظر نحوي..لم يكن غاضبًا لكن كان حزينًا. لم أشأ أن أتوقف بعد أن واجهته بحقيقة الأمر: حتى كامل الشناوي في قصيدته الشهيرة «لا تكذبي» لم يتردد في نشر

افتراءاته حول المرأة واتهامها بالخيانة مع أنها لم تحبه حتى تخونه، لكنه هو الذي عاش قصة حب في خياله وأراد منها أن تكون وفيّة لهذا الخيال!
مضت عدة أسابيع بعد لقاء المصارحة على القهوة وأيقنت أن محمود لن يرحب بلقائي بعد ذلك لأنني رأيته أضعف من أن يواجه نفسه، لكن تشاء الظروف أن ألقاه بالشارع فيقابلني متهللًا ويأخذني بين ذراعيه هاتفًا: خلاص..الموضوع انتهى.
نظرت إليه في شك فقال: أنهيت الموضوع بصورة درامية تليق بفيلم عربي قديم.
سألته في لهفة: ماذا فعلت؟
قال: قابلتها في الجامعة وقدمت لها ورقة فيها أبيات شعرية أنهيت بها كل شيء.
قلت في دهشة: أبيات شعرية؟.. ماذا قلت فيها؟
انطلق محمود ينشد في سعادة:
صباحَ مساء بالنار أصطلي أفيك حياتي أم مقتلي؟
ظننت بقربكِ أن أستريحَ فصرتُ أكفّن مستقبلي
فهل زامر الحي يطلق نباحًا وهل ما كتبتُ بلا طائلِ؟
وكل الرسائل تمضي إليك مُدمّاة تقطر من داخلي
فترتد تحمل منك الجواب يبشّر بالألم المقبلِ
فهل تسمحي لي أن أشتفي وأنفض حبكَ عن كاهلي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

مقدمة..

راوية.. الأحلى من القمر

فريق الحاج علي

نبيلة.. والعريس

سرحان.. والسوتيان الأحمر

سامحيني يا أم ألبير

عربي أوكورديون

سامية أنجاجيه

مُسعد كاوتشا

أبلة جمالات

مخالي.. صاحب البرميل

رمضان والحسناء

جمعة.. ملك البيزنس

روماني والأستاذ فهمي

إبراهيم سنون

ميمي مفتاح

حنفي

فتحي يريد زوجة

سامح الأونطجي

فرويد

محمود.. وعدّة التلفون